تفسير

سورة الفاتحة

بقلم سيدنا مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

الناشر:
الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: تفسير سورة الفاتحة

الترجمة العربية

ترجمه من الأردية: الأستاذ المرحوم ملك مبارك أحمد

© جميع الحقوق محفوظة للشركة الإسلامية المحدودة

فهرس

سورة الفاتحة ٦

أسماء الفاتحة ٦

فضائل الفاتحة ٨

زمن نزول الفاتحة ١٠

قراءة الفاتحة في الصلاة ١٠

خلاصة معارف الفاتحة ١١

بسم الله الرحمن الرحيم (١) ١٣

فضيلة البسملة ١٤

حكمة وضع البسملة أول كل سورة ١٥

ذكر البسملة في الكتب السابقة ١٦

سبب زيادة الاسم في (بسم الله) ١٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ١٩

معاني الآية ومطالبها ٢٠

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) ٢٢

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ٢٤

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ٢٨

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ٣٢

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ٣٦

كلمة الناشر

قام الإمام حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه وهو الخليفة الثاني لسيدنا مرزا غلام أحمد القادياني الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام بتفسير القرآن الكريم باللغة الأردية، ما عدا بعض السور. وتم نشر هذا التفسير في عشر مجلدات. كما صدرت منه طبعات مختصرة بعدة لغات. ولقد تمكنا بفضل الله وعونه من نشر ترجمة عربية للمجلدات الثلاثة الأولى لهذا التفسير القيم ولازالت الأعمال جارية لإتمام المجلدات السبعة الباقية.

وكي نعطي أبناء لغة الضاد عينة من هذا التفسير الرائع رأينا مبدئيا أن نقتطف لهم أهم ما ورد في المجلدات الثلاثة الأولى، ولكن الاقتراحات الصائبة من جوانب مختلفة أقنعتنا لتقديم التفسير الكامل. وها نحن نبدأ بعون الله تعالى بتقديم التفسير الكامل لسورة الفاتحة وندعوه عز وجل أن يوفقنا لإنجاز الباقي في أسرع وقت.

والإمام مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه مشهود له بالبلاغة والفصاحة في اللغة الأردية، وله أسلوب خاص في التصنيف والخطابة يتسم بالسهولة والسلاسة، ويجمع بين القوة والحلاوة، يعمد فيه إلى الإطناب المفيد، ويتناول الموضوع من جوانب متعددة، لكي يتيسر على القارئ أو السامع فهمه والإحاطة به. علما بأنه رضي الله عنه لم يتجاوز الثانوية من العلوم الدنيوية، غير أنه أعطي من عند الله تعالى حظا وافرا من العلوم الدينية ولاسيما علوم القرآن، وهذا التفسير خير شاهد على ما نقول.

ولا يتسنى لقارئ الترجمة أن يحصل على المتعة الكاملة التي يحظى بها قارئ التفسير باللغة الأصلية الأردية، ولكننا على يقين من أن قراء العربية سوف يجدون فيه من لآلي المعاني ما يكفل لهم المتعة والرضا، ولسوف يفتح الله تعالى لهم نوافذ جديدة يطلون من خلالها على بحار العلوم القرآنية.. فيزداد تذوقهم لكلام الله تعالى واطلاعهم على معارفه المكنونة.

نسأل الله تعالى أن يجعل من هذه الترجمة خدمة نافعة لقراء العربية وخاصة لمن تهفو نفوسهم لاقتناء كنوز القرآن الكريم.. فيتزودوا منها بما يقوي إيمانهم وينير طريقهم في رحلتهم إلى الله سبحانه وتعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

كلام الله

إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يمكن أن يسمى "كلام الله". أما الكتب الأخرى، وإن كانت تدعى كتبا إلهامية، إلا أنه لا يمكن أن تسمى "كلام الله".. لأن كلام ا لبشر قد أضيف إليها وخالطها. أما "كلام الله" الخالص في كل حرف منه.. فإنما هو القرآن الكريم وحده بدءا من الباء في قوله تعالى "بسم الله الرحمن الرحيم" إلى السين في قوله "من الجنة والناس".

لا يزال هذا الكتاب إلى يومنا هذا هو هو كما نزل. لم تنقص منه كلمة واحدة، و لم تضف إليه كلمة واحدة. ليس فيه أمر لا يمكن العلم به. لم تنسخ منه آية واحدة. كل سكنة أو حركة في ألفاظه بفتح أو ضم أو كسر محفوظة، وكل وقف كما هو. فلذلك ليس هناك كتاب سوى القرآن نستطيع أن نتخذه منارا لحياتنا موقنين بأن لا شبهة في أي أمر فيه.

ولكن وا أسفاه!! لقد نسي المسلمون هذا الكتاب القيم، وانشغلوا عنه إلى كتب أخرى، وبدلا من أن يتبعوا الله ربهم يتبعون زعماء اختاروهم بأنفسهم.

ولقد أردت بكتابة هذا التفسير لكلام الله تعالى أن يجد فيه من لا يعرفون اللغة العربية، أو من ليس لديهم لسوء حظهم وقت للتدبر في كلام الله، أو من لا تتولد في قلوبهم رغبة في ذلك.. الفرصة لأن يفهموا كلام الله تعالى، ولأن يطلعوا على محاسنه المكنونة.

بهذه السطور أستهل المجلد الأول من هذا التفسير..... تقبل الله مني هذه المحاولة المتواضعة، وأحيا بهذا التفسير من جديد معاني القرآن الكريم حياة ظاهرة وباطنة.. ووفقني لإكماله. آمين!

٢٣/ ٥ / ١٩٤٨ ميرزا محمود أحمد

رتن باغ، لاهور

أعوذ بالله من ا لشيطان الرجيم بسم الله الرحـــمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

بفضل الله ورحمته.. هو الناصر

سورة الفاتحة

(مكية وهي مع البسملة سبعُ آياتٍ)

السورة: السورة لغة تعني: المنـــزلة؛ الشرف؛ ما طال من البناء وحسن؛ العلامة (الأقرب). والسورة من الكتـــاب: القطعة المستقلة. والسورة: ما تم وكمل من الأشياء.. يقول العرب للناقة الشابة الصحيحة سورة. وجمعها سور. وقد يكون أصل هذا اللفظ من سؤرة، انقلبت إلى سورة للضمة قبل الهمزة، ويكون معناها البقية.. يقول العرب: هـــو في أسأر الناس أي بقيتهم.

وعندي أن هذه المعاني كلها تصدق على هذه الكلمة، لأن السورة من القرآن المجيد تـــورث مـــن يقرأهامنـــــزلة، وتشرف من يعمل بها، وهي علامة اختتام موضوع خاص، وهي بناء روحي فخم، وهي جزء من أجـــزاء القـــرآن، وهي تضم بحثا كاملا من النواحي جميعها.

ولقد أطلق الرسول ﷺ نفسه هذه التسمية على سور القرآن بوحي من الله تعالى. وقد وردت التسمية نفســـــها في القرآن الكريم كقوله تعالى (وإن كنتم في ريب مما نـــزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله)(سورة البقـــرة: ٢٤). وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: "أنـــزلت علي آنفا سورة. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم * إنـــا أعطينـــاك الكوثـــر" (مسلم، كتاب الصلاة).

أسماء الفاتحة

ولسورة الفاتحة عدة أسماء أخرى، والمعروف منها ما ورد في القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ وهي:

١. سورة الصلاة: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله عز وجل: "قسمت الصلاة بيـــني وبـــين عبدي نصفين". (صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة)، أي قسمت سورة الفاتحة. والمـــراد أن نصف السورة ذكر لأسماء الله عز وجل والثناء عليه، ونصفها الثاني دعاء العبد.

٢. سورة الحمد.

٣. أُمُّ القرآن.

٤. القرآن العظيم.

٥. السبع المثاني.

٦. أُمُّ الكتاب: وقد وردت هذه الأسماء الخمسة في روايتين هما: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني". (أبو داود، كتاب الصلاة، باب فاتحة الكتاب). وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم". (مسند أحمد بن حنبل، ج ٢، باقي مسند المكثرين).

٧. الشفاء: عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "فاتحة الكتاب شفاء من كل داء" (مسند الدرامي). وفي رواية: "شفاء مِن كل سم". (البيهقي، شعب الإيمان).

٨. الرُّقْيَة: عن أبي سعيد الخدري أن رجلا ذُكِرَ لرسول الله ﷺ أنه رقى رجلا سليمًا.. أي من لدغته الحية.. فبرأ. فقيل له: "أكنتَ تحسن رُقْيةً أو كنتَ ترقى؟ قال: لا، ما رقَيتُ إلا بأم الكتاب". فعندما ذُكر لرسول الله ﷺ قال: "وما كان يُدريه أنها رقية!". (صحيح البخاري، فضائل القرآن).

٩. الكنز: عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: "إن الله أعطاني فيما مَنَّ به عليَّ فاتحة الكتاب، وقال: هي كنز من كنوز عرشي." (تفسير فتح البيان).

ولقد تناولتُ هذه الأسماء مفصلة لأن جميعها ثابتة عن النبي ﷺ، وأنه نفسه سماها بإلهام من الله عز وجل، ولأن هذه الأسماء تشير إلى الحقائق التالية:

أولا: هي فاتحة الكتاب، لأن الله تعالى وضعها في أول القرآن، وهي أيضا مفتاح لمعارف القرآن جميعها.

ثانيا: هي سورة الحمد، لأنها تبين علاقة الإنسان بخالقه، وتحدد غاية خلقه بأنه خلق لأجل التقدم إلى درجات سلمية من القرب الإلهي، وأن صلته مع الله تعالى أساسها رحمة الله وفضله.

ثالثا: هي سورة الصلاة.. أي الدعاء، لأنها تعلم الإنسان دعاء كاملا لا مثيل له.

رابعا: هي أم الكتاب، لأن جميع العلوم التي يحتاجها الإنسان في شتى أوضاع حياته قد جمعت فيها جمعا رائعا، ولأنها بمثابة الأم.. أي أن الأدعية التي تشتمل عليها هذه السورة هي التي كانت انبعثت من القلوب المتضرعة فاستدرت نزول القرآن.

خامسا: هي السبع المثاني، لأنها وإن كانت سبع آيات فحسب، فهي تلبي احتياجات الإنسان كلها، حيث إن آياتها تحل أعقد المسائل الروحانية، وهي مرجع يتكرر لحل هذه المسائل كافة، وأيضا لأن آياتها تقرأ في كل ركعة من الصلاة.

سادسا: هي القرآن العظيم، لأنها جزء من القرآن. وسميت قرآنا بحسب عادة العرب إذ تقول: أسْمِعْنا القرآن، وتعني جزءا منه. فالفاتحة ليست خارجة عن القرآن كما زعم البعض.

سابعا: هي سورة الشفاء، لأنها تشفي من جميع الوساوس التي تختلج بها صدور الناس في أمور الدين.

ثامنا: هي رُقْية، لأنها تنفع كرقية، كما تمنع عن قارئها الوساوس، وتولد فيه قوة تصير حيالها دسائسُ الشياطين عقيمة.

تاسعًا: وهي سورة الكنز، لأنها خزينة العلوم والمعارف، وجامعة لفرائد المعاني وغرر المبادئ..كأن البحر على سعته قد انحصر في كوب صغير.

وقد ورد النبأ في الكتب السماوية السابقة مشيرا إلى اسم هذه السورة وعدد آياتها السبع كما جاء في سِفْر الرؤيا: "ومعه في يده سِفْر صغير مفتوح، فوضع رجله اليمنى على البحر واليسرى على الأرض، وصرخ بصوت عظيم كما يزمجر الأسد. وبعد ما صرخ تكلمت الرعود السبعة بأصواتها". (رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح ١٠: ٢ و٣).

فضائل الفاتحة

منها ما مر ذكره ومنها ما يقتضي التفصيل، وهاك بيانه:

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن. وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل." (النسائي، كتاب الافتتاح).

هذه الفضيلة عظيمة الأهمية، لأنها ترشد إلى طريق يساعد الإنسان على حل الأمور الدينية والدنيوية، وهو أن كل دعاء مصحوب بالفاتحة ينال القبول. ومن البين أن معنى الجملة الأخيرة من هذا الحديث ليس أن مجرد قراءة هذه السورة وسيلة للإجابة، بل معناها أن الذي يسلك طريق القبول المذكور في السورة هو الذي يستطيع دعاؤه أن ينال القبول. وهذا الطريق ترسمه أجزاء السورة كما يلي: ١: بسم الله الرحمن الرحيم، ٢: الحمد لله رب العالمين، ٣: الرحمن، ٤: الرحيم، ٥: مالك يوم الدين، ٦: إياك نعبد، ٧: إياك نستعين.

فكأن السورة كما أنها سبع آيات فهي كذلك تتضمن سبعة مبادئ لقبول الدعاء:

المبدأ الأول: بسم الله، وطبقا لهذا المبدأ يجب أن يكون الدعاء لأمر صالح. فلا ينبغي للسارق مثلا أن يدعو للنجاح في سرقته، لأنها لا تصلح لأن تبدأ باسم الله عز وجل. فالدعاء المبتدأ باسم الله والاستعانة به لا بد أن يكون لأمر يحبه الله للعبد. رأيت كثيرًا من الناس يدعون على غيرهم بالدمار والهلاك ثم يشكُون أن الدعاء لم يُستجب. وكذلك يدعون لمقاصد جائرة ثم يزعمون أن الدعاء لم يُسمَع. ومنهم من يتظاهر بالزهد والتقوى ويبيع التمائم ويدعو لأمور محرمة، والواقع أن هذه التمائم والأدعية مردودة عليه.

المبدأ الثاني: الحمد لله رب العالمين، أي ينبغي للداعي أن يدعو دعاء يعم خير ه الناس أجمعين، أو على الأقل يتجنب الدعاء عليهم، وينبغي أن لا يناقض الدعاء صفة الحمد لله، ولا يكون سببا لتنقيصه.

المبدأ الثالث: الرحمن، أي أن يكون الدعاء مستثيرا لرحمة الله الشاملة ومظهرا لصفته الرحمانية.

المبدأ الرابع: الرحيم، أي أن يكون الدعاء أساسا متأثلا للأعمال الصالحة المستمرة، لفترة طويلة من الزمن، وألا تنقطع إفادته عن الصالحين المحسنين، أو على الأقل لا يقف في طريقهم.

المبدأ الخامس: مالك يوم الدين، أي ينبغي للطالب ألا يتعدى فكره عن الأسباب التي خلقها الله للإنتاج الصحيح، لأنها أيضا من خلق الله عز وجل، وليس من المستساغ أن يتوسل العبد إلى الله بغير ما خلق له من الوسائل. فالأسباب المادية يجب استعمالها بشرط وجودها لدى الداعي وتمكنه منها. نعم، إذا لم تكن الأسباب متوافرة تجلت هذه الصفة الربانية متعالية عن الأسباب. وتشير الكلمة أيضا إلى أن العبد يجب أن يكون مجاملا للناس في حقه عليهم، وألا يكون فظا عند المطالبة.

المبدأ السادس: إياك نعبد، أي أن يتمتع السائل بعلاقة قريبة بالله وأن يكون مخلصا معه تعالى وأن يتجنب بكل حرص ميول الشرك ونزعات الشيطان.

المبدأ السابع: إياك نستعين، أن يكون حياته ومماته لله، وأن يكون اعتماده كله على ذاته عز وجل، منقطعا إليه عن جميع ما سواه، وأن يبلغ في التوكل على الله مكانة تغنيه عن الاستعانة بغير الله في كل الأحوال، مهما دارت به الدوائر.

هذه هي المبادئ السبعة التي إذا عمل بها الإنسان صار العبد الذي ذكره الرسول ﷺ في الحديث: "ولعبدي ما سأل"، ويستجاب دعاؤه.

والحق أنه لا يوجد نموذج لمثل هذا الدعاء الكامل إلا عند محمد المصطفى ﷺ وأتباعه الصادقين. ففيهم وجدت الدنيا آيات لقبول الدعاء أعادت للعميان بصارتهم، وللصم سماعتهم، وللبكم فصاحتهم. والباب للوصول إلى المنزلة التي نالها أصحاب النبي ﷺ لم يغلق، بل إنه مفتوح على مصراعيه، ومن سعى للوصول إليها فاز بها.

وروى سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال له: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن؛ فعلمهم الفاتحة." (البخاري،كتاب فضائل القرآن).

وأراد ﷺ بقوله "أعظم سورة في القرآن" أن معارف الفاتحة، على صغر حجمها، أكثر من معارف السور الطوال، ولا مراء في ذلك فإنها بمثابة متن القرآن.

وهنا أود أن أبين ما شهدته شخصيا من فضل هذه السورة. كنت حدثا صغيرا حينما رأيت في المنام أني قائم في مكان متوجها نحو الشرق، وأمامي ميدان واسع. فإذا أنا بصوت مثل طنطنة الآنية. وأخذ الصوت ينتشر في الجو حتى

ظننت أن الجو قد امتلأ به. ثم بدأ وسط الصوت يتجسد لي، وأخذ يظهر بمظهر إطار مثل إطارات الصور، وبدت في ذلك الإطار ألوان خفيفة، ثم زادت الألوان وشكلت في النهاية صورة. ثم تحركت الصورة و أصبحت ذات حياة. فخيل إلي أن الصورة لملاك من الملائكة. فخاطبني وقال: ألا أعلمك تفسير الفاتحة؟ قلت له: بلى، علمني تفسير هذه السورة. فأخذ يعلمني حتى فسر لي (إياك نعبد وإياك نستعين). ثم قال لي: إن جميع كتب التفسير انتهت بتفسير هذه الآية، و لم يأت أحد بتفسير ما بعدها من الآيات. ثم قال: ألا تريد أن أعلمك تفسير ما بعدها؟ قلت: بلى. ففسر لي (اهدنا الصراط المستقيم) وما بعدها من الآيات. فلما انتهى من التفسير استيقظت، ووجدت نفسي كأنني لا أذكر من التفسير إلا أمرا أو أمرين. ثم عدت إلى النوم ثانية، ولما أفقت نسيت جميع ما علمت من التفسير.

وبعد مدة سنحت لي فرصة للحديث حول تفسير هذه السورة، وعندئذ شعرت بأن نفسي تأتي بمعارف لا عهد لي بها. فتأكدت أنها تلك التي علمنيها الملاك. ومنذ ذلك اليوم ما زلت أتلقى حقائق لطيفة لهذه السورة المباركة، وقد صرحت بكثير منها في الكتب والخطب.. و لم تنفد هذه الخزينة.

والمبادئ السبعة التي ذكرتها هنا عن استجابة الدعاء هي أيضا من ثمرات تلك التجارب، إذ إنني لما أردت تفسيرها هذه المرة أحببت أن يجدد الله لي سنته، فانكشفت لي هذه المبادئ السبعة لإجابة الدعاء. فالحمد لله على ذلك، وما كتبت إلا كلاما موجزا بالنسبة إلى ما تحتوي عليه هذه المبادئ من حقائق واسعة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

زمن نزول الفاتحة

عندي أن السورة نزلت بمكة ثم نزلت بالمدينة. ومن المؤكد أنها مكية لأنها نزلت أولا بمكة حيث ذكر نزولها في سورة "الحجر" المكية في قوله تعالى: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) (الآية ٨٨). كما روى بعض الصحابة والأئمة أنها نزلت بالمدينة. (القرطبي).

قراءة الفاتحة في الصلاة

وقراءة الفاتحة في كل ركعة من كل صلاة واجبة. ومن دخل الصلاة عند الركوع فقراءة الإمام للفاتحة تكون قراءة له. ويؤكد ذلك أحاديث كثيرة منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج." (مسلم،كتاب الصلاة،باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة).

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب." (البخاري، كتاب الصلاة).

فقراءة الفاتحة واجبة على كل مصل إمام أو مأموم، في صلاة الجهر والسر. والاستثناء السابق لمن دخل الصلاة عند ركوع الإمام لا ينقض القاعدة. كما يجوز لمسلم حديث الإسلام الذي لم يتعلم الفاتحة أو الطفل الذي لا يعرف قراءتها، أن يصلي بدونها حتى يتعلمها.

خلاصة معارف الفاتحة

إن الفاتحة كما يبدو من اسمها "فاتحة القرآن" قد جمعت حقائق القرآن بصورة موجزة كي يقف عليها القارئ مجملة في أول القرآن.

بسم الله.. البدء بها يدل على أن القارئ يؤمن بالله، وبأن الله، على عكس ما يزعم الفلاسفة، ليس العلة الأولى للكون فحسب، بل إن جميع الأمور تحدث بحكمه وإشارته. ومن ثم لا بد من الاستعانة به التي تغني الإنسان عن آية استعانة أخرى. وأيضا يتيقن المؤمن بأن الله ليس قوة روحانية خفية فحسب، بل له وجود مستقل وله اسم مستقل، وهو متصف بمختلف الصفات.

الرحمن.. هو المبدأ لجميع أصناف الرقي، وعنده كافة الوسائل التي تتوسل بها الدنيا إلى التقدم والنهوض.

الرحيم.. خلق الإنسان لغاية سامية، فإذا اعتمد الإنسان على الذرائع التي خلقها الله لأجله اعتمادا كاملا.. أتت له بنتائج حسنة يستحق معها المزيد من النعم باستمرار وبدون انقطاع.

الحمد لله..تمتاز أعماله عز وجل بالجامعية والكمال، ولا يعوزه نوع من أنواع الحسن. فهو الأحق بالحمد كله، لأنه خالق لكل ما عداه.

رب العالمين.. وهو رب العالمين.. ما من شيء إلا وهو الذي بدأه ورباه ليرتقي إلى نهايته في مراحل عديدة، وليس هناك شيء وجد بنفسه. فهذه الدنيا تتنوع فيها المخلوقات التي لا تعد ولا تحصر، وكل نوع له أفراد ولهم طبائع مختلفة، وكل طبيعة لها عادات.. وهذا الاختلاف والتنوع يستمر ولا نهاية له. فلا بد لفهم حقيقة شيء أن نفكر في نوعه، لا فيما يخالفه نوعا.. فيجب أن لا ينخدع أحد برؤية اختلاف في عادة الله في الكون، لأنه يرجع إلى اختلاف الأحوال لا إلى الإهمال أو الجور والظلم. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

الرحمن.. وكما أنه خالق الإنسان وغيره من الكائنات كذلك هو خالق لكل ما يحتاج إليه الإنسان من الأسباب. فكل شيء محتاج إليه عز وجل في كافة الظروف والأحوال.

الرحيم.. وكما أنه خالق الأشياء وما تحتاج إليه من أسباب، كذلك هو الذي يملك النتائج التي تؤدي إليها هذه الأسباب. فمثلا إنه خلق الإنسان وخلق له ما يتغذى به لاستمرار حياته، وكذلك ما يترتب عليه ويتولد منه، صالحا كان أو فاسدا، كله من أمره عز وجل.

مالك يوم الدين.. سن للجزاء قاعدة أن الإنسان سوف يتمتع بحسنات ما كسب، ويتعذب بسيئات ما اكتسب. والأعمال على قسمين: قسم يأتي بثمرات عاجلة، وقسم آخر يتأخر ثماره إلى أجل مسمى. وهذا القسم الأخير يأتي بنتيجة شاملة لجميع الأعمال، في حين أن القسم الأول يختص بكل عمل على حدة. فالله تعالى لم يكتف بجزاء كل عمل، بل جعل للأعمال كلها جزاء جامعا بصفة مالك يوم الدين.

إياك نعبد وإياك نستعين.. هذا هو الذات الجدير بالعبادة والحب. وتقد م الإنسان يتوقف على أمرين: الأول: الحركات البدنية، والثاني: الميول القلبية.. وهذا الأخير يعم الفكرة والعقيدة والإرادة. فلا بد من إصلاح القسمين كليهما، وهذا الإصلاح لا يمكن تحققه إلى بعونه تعالى.

اهدنا.. هنا صر ح عز وجل أنه يحب أن يتصل بعباده ويقوم بإصلاحهم.. ومن ثم ينبغي على العبد أن يلتفت نحوه ويجتهد للتقرب إليه.

الصراط المستقيم.. يرى الإنسان أمامه طرق ا متعددة تؤدي إلى الله فيما يبدو، ولكن معرفة الطرق فقط لا يجدي نفعا حتى يعرف الإنسان أولا أقصرها وأقربها، لئلا يقضي عليه السعي المضني قبل الوصول إلى غايته.

صراط الذين أنعمت عليهم..كما عليه أن يسعى إلى طريق معروف عند الصالحين من عباد الله، مسلوك لديهم، موصل إليه عز وجل.. وذلك كي يطلع على الأخطار التي تعترض سبيله، ويقدر على معالجتها قبل الوقوع فيها، ويطمئن قلبه، ولا يأخذه اليأس، ولكي يتمتع بصحبة رفاق صادقين جادين. وهذا هو الطريق الجدير بالطلب من الله عز وجل.

غير المغضوب عليهم.. عندما بتقدم الإنسان في التقرب قد تنهار به ميول الكبرياء والإعجاب. فلا يجدر بالإنسان أن يستبيح الظلم والاضطهاد نتيجة التقدم الذي أحرزه بفضل الله وعونه، بل عليه أن يتوسل به إلى خدمة الإنسانية والسلام العام، وينبغي أن يستعين بالدعاء للحصول على هذا الغرض.

ولا الضالين.. وكما قد يطغى الإنسان بسبب التقدم كذلك يُفرِط أحيانا في حب شيء حقير وضيع، فيرفعه إلى ما لا ينبغي بسبب الغلو والإطراء، وهذا الأمر أيضا يجب تجنبه بالاستعانة بالله عز وجل.

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

شرح الكلمات:

ب: الباء في "بسم الله"حرف جار، ورد بمعنى المصاحبة والاستعانة، أي أَقرَأ متمسكا باسم الله ومستعينا به.

اسم: معنى الاسم: الصفة أو العَلَم، وهو إما من الوسم أي العلامة، أو من السمو أي الرفعة. وقد قال بعض العلماء إن هناك محذوفا متعلقا بالباء في بسم الله هو: اقْرَأْ واشْرَعْ بسم الله الرحمن الرحيم، ودليلهم قوله تعالى في سورة العَلَق: (اقرَأْ باسم ربك الذي خلق).

أما الزمخشري فيرى أن المحذوف هو: أَقْرَأُ أو أَشْرَعُ، والمعنى هكذا: بسم الله الرحمن الرحيم أَقرَأُ أو أَشْرَعُ. ودليل الزمخشري أن التأكيد هنا هو على اسم الله، لذلك يقدَّم، وأما في سورة العلق فكان التأكيد على القراءة، لأن الرسول ﷺ كان مترددا في القراءة، لذلك قدِّم لفظ "اقْرَأْ" هنالك.

ورأي الزمخشري لطيف للغاية ومؤيد لما ذكرتُ من أسباب تكرار البسملة قبل كل سورة في القرآن الكريم.

الله: اسم للذّات الأزلي الأبدي الحي القيوم الخالق المالك الرب لكل شيء. هذا الاسم ذاتي، وليس وصْفِيا. ولا يوجد اسم ذاتي لله عز وجل في أي لغة سوى العربية. وهذا الاسم لا يدل إلا على ذات الله تعالى. وهو اسم جامد وليس بمشتق.

الرحمن: فَعْلانٌ مِن رحم، وهذا الوزن يدل على الامتلاء والغلبة. (تفسير البحر المحيط). فمعنى الرحمن: الواسع الرحمةِ الذي وسعتْ رحمتُه كل شيء. ولا بد أن تكون هذه الرحمة عن غير استحقاق أو عمل، لأن كل إنسان لا يستحق أن يطلب الرحمة كحق له.

قال الإمام اللغوي أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، وقال تعالى: (وكان بالمؤمنين رحيما) (تفسير فتح البيان). وفي الحديث: عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: "الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة." (تفسير البحر المحيط).

الرحيم: فعيلٌ مِن رحم، ويدل على التكرار والجزاء على قدر الاستحقاق (تفسير البحر المحيط)، فمعناه أنه يجزي المستحق بالرحمة جزاء حسنا وافيا، ويواصل هذا الفعل.

التفسير:

تبدأ سور القرآن كلها بالبسملة، ما عدا سورة "براءة". والأصح أن البراءة ليست سورة مستقلة، بل هي جزء من سورة الأنفال، ولأجل ذلك ما بدأت بالبسملة. ودليل ذلك ما روي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه "بسم الله الرحمن الرحيم". (أبو داود، كتاب الصلاة). وذكره الحاكم في مستدركه . ويشير الحديث إلى أن البسملة تدل على انفصال سورة وابتداء أخرى، ومن ثم فالبراءة جزء للأنفال.

كما يدل هذا الحديث على أن البسملة من وحي الله تعالى ومن القرآن الكريم بلا مراء. وقد زعمت طائفة من العلماء أنها ليست جزءا لأي سورة من سور القرآن الكريم سوى الفاتحة، وبعضهم لم يستثن الفاتحة أيضا. وهذا الرأي غير صحيح.. أولا: بشهادة الحديث السالف ذكره، وثانيا: لأن هناك عدة أحاديث أخرى تذكر بأن رسول الله ﷺ قال بأنها جزء لكل سورة، منها مثلا: روى الدار قطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم. إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آيها".

هذا الحديث أيضا يشير إلى أن البسملة جزء لسائر السور، لأن الرسول ﷺ لم يخص الفاتحة بالبسملة، بل استدل بكونها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني على أن البسملة كما هي جزء لسائر السور كذلك هي جزء لهذه السورة، بل هي أحق بها لكونها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني.

كما روي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: "أ نزلت علي سورة آنفا، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر." (صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب من قال البسملة آية من أول كل سورة). وأمثال هذه الرواية قد وردت عن سور أخرى.

فضيلة البسملة

أكد رسول الله ﷺ فضيلة البسملة حيث قال: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم أقطع". (الدر المنثور للسيوطي).

وقال: "أغلق بابك واذكر اسم الله عز وجل، فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمر إناءك ولو بعود تعرضه واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله عز وجل". (مسند أحمد بن حنبل ج ٣، باقي مسند المكثرين).

وكذلك أمرنا بالبسملة عند اجتماع الزوجين، وقبل الوضوء والطعام واللباس، وقبل دخول المرحاض. وذكر القرآن أن سليمان بدأ كتابه إلى ملكة سبأ بالبسملة حيث قال: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)(سورة النمل:

٣١). وأيضا ذكر القرآن أن نوحا سمى الله قبل دخول السفينة فقال: (اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) (سورة هود: ٤٢).

حكمة وضع البسملة أول كل سورة

جاءت البسملة قبل كل سورة لأن القرآن الكريم كخزينة لا تنفتح إلا بإذن الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى: (لا يمسه إلا المطهرون)(سورة الواقعة: ٧٩)، أي لا يمكن أن يطلع على أسرار القرآن إلامن اصطفاه الله لهذا الغرض. وكذلك يقول الله تعالى: (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا)(سورة البقرة:٢٦). ومعنى ذلك أن اللفظ واحد، لكن كل إنسان يستفيد منه بحسب تقواه. ولكن ما هي الوسيلة إلى هذه الاستفادة الصحيحة؟ يعلمنا الله الوسيلة في قوله: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله..)(سورة النحل: ٩٨). وقد أمرنا بالبدء بالتعوذ بالله ثم بالبسملة قبل كل سورة كي نصان من نزوات الشيطان ونتعوذ بالله، ثم نستعين به متضرعين بالرحمانية والرحيمية، وذلك هو الطريق الذي يوصلنا إلى معرفة القرآن والاهتداء به.

والأمر الثاني الذي لأجله جاءت البسملة أول كل سورة هو نبأ التوراة بأن النبي الذي سوف يبعث مثيلا لموسى ستكون سنته المتبعة في تعاليمه أنه يبدأ كل ما يكلم به الناس باسم الله تعالى، كما جاء في العهد القديم: "ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه".(سفر التثنية ١٨: ١٩). فطبقا لهذا النبأ العظيم كان لابد لمثيل موسى عليهما السلام أن يسمي الله قبل أن يدعو الناس إلى رسالته، ويقول لهم إن كل ما أقوله لكم هو باسم الله ومن لدنه، وليس من عند نفسي. لقد اقتضى تحقيق هذا النبأ أن توضع البسملة قبل كل سورة في القرآن المجيد، وأيضا كي ينتبه اليهود والنصارى ويستجيبوا له.. لئلا يستحقوا العذاب إذا رفضوا ما يقوله هذا النبي.. حسب ما أوحي به إلى موسى.

الأمر الثالث الذي دعا إلى تقديم البسملة هو شهادة التوراة: "وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى.. فيموت ذلك النبي". (التثنية ١٨: ٢٠).

تصرح هذه الشهادة بأن الذي يفتري على الله الكذب مصيره الهلاك. ولذلك وإتماما للحجة على جميع الأمم، وخاصة على اليهود والنصارى.. تبدأ كل سورة باسم الله. وهكذا يتجلى صدق النبي ﷺ لكل محقق يبصر نجاحه وازدهاره، إذ لو لم يكن رسولا صادقا فلماذا لم يهلكه الله؟ فكأن البسملة في أول كل سورة حجة دامغة على اليهود خاصة.. أقامها الله عليهم أكثر من مائة مرة، ولو كانت في أول القرآن فقط لما كان هذا الدليل بهذه الدرجة من القوة.

الأمر الرابع الذي يقتضي تقديم البسملة في كل سورة هو أن قارئ القرآن لا يخلو عن أحوال ثلاث: إما أن يكون مفلسا، أو مغضوبا عليه بسبب معصيته وتماديه في الكفر، و لم تبق لديه أية وسيلة يستحق بها فضل الله عز وجل، أو مؤمنا مضحيا في سبيل الله. ومن البين أن الحالة القلبية لكل واحد من هؤلاء الثلاثة تختلف عن الآخر، فيمكن أن يكون الأول متحيرا، والثاني يائسا، والثالث مستكبرا. الأول متحير في إيجاد الوسيلة التي يتوسل بها إلى الله، والثاني يائس بسبب استغراقه في المعاصي وامتناعه عن طلب الهداية، والثالث مستكبر لأجل توهمه بأنه حصل على كل ما لا بد منه. ونتيجة لهذه الأحوال الثلاث يحرم الإنسان من الانتفاع بهدي الله ﷻ.

فوضعُ البسملة في أول كل سورة دواء لهذه الأمراض الثلاثة.. فالأول المتحير تخبره البسملة بأن هناك إلها يُنعم على الإنسان حتى بلا استحقاق، والثاني اليائس تبشره البسملة بأن الذي أنزل هذه السورة قادر على أن يغفر الذنوب، والثالث المستكبر تنبهه البسملة أن خزائن رحمة الله لا تنفد، وتدعوه أن لا يكتفي بما قدمت يداه من تضحيات، بل يبذل الجهد الذي يستحق به ما هو أعلى من هذه الدرجة وأسمى. والظاهر أن الإنسان إذا صلح قلبه بهذه الدرجة انكشفت له المعارف القرآنية التي لا عهد له بها قبل هذا الإصلاح. فإيراد البسملة قبل كل سورة قد هيأ الله تعالى وسيلةً رائعة لفهم معارف القرآن الكريم.

والسبب الخامس لتقديم البسملة هو أنها تعمل عمل المفتاح لكل سورة، لأن جميع مسائل الدين تتعلق بصفتي الرحمن الرحيم. فقارئ أية سورة إذا أخطأ في فهم شيء منها أمكن تصحيح الخطأ بوجهين: إذا فكر الإنسان في معاني السورة ووجد رأيه موافقا للرحمانية والرحيمية فرأيه صحيح، وإن وجده مخالفا لهما فليعلم أن رأيه هو الخاطئ. وعلى هذا المنهج يكون كلٌّ من البسملة والسورة تفسر إحداهما الأخرى. فاجتماعهما في موضع ما يساعد الإنسان على فهم القرآن فهما صحيحا.

ذكر البسملة في الكتب السابقة

قال بعض الطاعنين في الإسلام إن البسملة التي تفاخرون بها توجد أيضا في الكتب القديمة مثل ما جاء في كتب زرادشت: (بنام يزدان بخشائش كرواوار). وتُرجمت هذه العبارة باللغة الفارسة الحديثة كالآتي: "بنام خداوند بخشائنده بخشائش كَر". (تفسير المستشرق ويرى).

كما قالوا إن استعمال (بسم الله) كان عادة في كتب اليهود، وتعلَّم العربُ ذلك منهم، وأول من أجرى هذا الاستعمال من العرب أمير من الطائف.(ترجمة القران لِـ رُدْوِل).

وهذا الادعاء الأخير لا يوجد له أصل في التاريخ، بل كان العرب لا يحبون استعمال لفظ الرحمن بهذه الصورة. فلا بد لهم من تقديم شاهد تاريخي على هذا الاستعمال، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك أبدا.

وأما ما قيل عن عادة اليهود بهذا الاستعمال، فإن أُريد به أن البسملة كانت متداولة بينهم في زمن متصل بعهد النبي ﷺ أو في العهد النبوي نفسه، أو أن تاريخهم يشهد به.. فهذا كله قول يعاكس الحقيقة بتاتا. وإن أُريد به مدورد في القرآن على لسان سليمان عليه السلام فهذا اعتداء عظيم على القرآن من قِبل هؤلاء المعترضين، إذ يطعنون فيه بما لا نجد له أي أساس سوى القرآن، ويحاولون نسبته إلى الآخرين. فما دام القرآن نفسه قد ذكر أن سليمان اختار هذا الأسلوب عندما كتب إلى ملكة سبأ: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم).. فكيف يصح إذًا القول بأن المسلمين ينفون وجود أي نظير لهذا المفهوم في كتب الأولين؟ إن الإسلام لا يقول بأن مفهوم هذه الآية جديد، إذ كانت أجزاء منها مستعملة قبل القرآن أيضا، إنما يتحدى الإسلام بأن الأسلوب الذي اختاره في استعمال هذه الكلمات لم يسبق له مثيل. ولأن جاء أحد بشاهد على زعمه فعندئذ يمكن أن يؤخذ في الاعتبار. لكن إيجاد هذا الشاهد أمر مستحيل، لأنه لا يوجد في الدنيا أي كتاب يدّعي بأن كل كلمة من كلماته وحي الله عز وجل. فليس سوى القرآن كتاب يمكن أن تدوَّن هذه الآية قبل كل فصل منه، لأنها جاءت في القرآن بوحي الله عز وجل.

وأما ذكر اسم الله على وجع التبرك والتفاؤل في المكاتيب وغيرها فأمر عادي لا ينكره أهل الإسلام، فإن شاركهم غيرهم في هذا فلا غرابة في هذه المشاركة ولو تكررت ألف مرة.

وأما ما قاله القسيس "ويري" فجوابه الأول ما ذكرناه آنفا، والجواب الثاني أن بين المعنيين الفارسي والعربي بونا شاسعا، ولا يمكن أن يقارنهما إلا الذي يجهل اللغة العربية جهلا شديد. إذ لا يُفْهَم من عبارة "بخشاش كَردادار" عُشْرَ مِعشار ما يُفهَم من (الرحمن الرحيم)، كما سيظهر من تفسيرها مفصلا. ذلك مع اعترافنا بما في تركيب العبلرة الفارسية من مزية معنوية، والإسلام يعلن: (وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير)(سورة فاطر: ٢٥). وإذا فنحن لا نستنكر وجود أية كلمة جامعة في كتب زرادشت، وإنما يستنكره القسيس نفسه، لأن عقيدته المسيحية هي التي تحجر على جميع الإنسانية فضل الله، ولا تقبل أي أثر من آثار النبوة والوحي خارج بني إسرائيل. إن زرادشت نبي من أنبياء الله عز وجل، وهذا من وجهة نظر الإسلام، ولأجل ذلك فهو عندنا حقيق بالاحترام، لأن منبع كلامه هو منبع القرآن نفسه ، فإن وافقنا على أمر فلا مجال للاستغراب.

سبب زيادة الاسم في (بسم الله)

رب متسائل يقول: يمكن أن نستعين بالله، ولكن لا نستعين باسم الله، فلماذا زيادة كلمة اسم؟

وجوابنا له:

أولا: الباء يستعمل للقسم كما يستعمل للاستعانة، فلو قيل: (بالله) لاشتبه بالقسم مع أنه للاستعانة والتبرك، ولذلك أضيف لفظ الاسم منعا للاشتباه.

ثانيا: إن الذات الإلهية في خفاء تام ولا تعرف إلا بالصفات، لذلك زيد الاسم، وتلاه الرحمن والرحيم للغرض نفسه، والمعنى أني أستعين به عز وجل متوسلا بهاتين الصفتين.

ثالثا: أريد بوضع الاسم الإشارة إلى أن أسماء الله تعالى مباركة، وعلى الإنسان أن يهتم بها لينال بركاتها.

رابعا: القرآن خزينة محروسة. حينما يدخل الإنسان بيتا له حرمته فلا بد أن يستأذن صاحبه أو يتقدم لحارسه أو لمن يسكنه حتى يسمح له بالدخول. فالشرطة حينما تدخل البيوت أو تصادر الأموال تقول: نحن نفعل ذلك باسم الحكومة. كذلك إذا أقدم الإنسان على قراءة القرآن تقدم باسم الله للملائكة المأمورين بتعليم معارف القرآن، وكأنه يقول: إن الله تعالى قد سمح لي بقراءة القرآن فافتحوا لي أبواب معانيه، ويختصر طلبه قائلا: إني أسألكم باسم الله الرحمن الرحيم فتح الخزائن القرآنية. ومن الجلي أن من يهتم بمعرفة القرآن بهذه الصورة سوف ينال من علومه نصيبا وافرا، ومن لا يعتني بإذن الله وباسمه، ويقصد الشر ويكتم البغض.. تسد في وجهه الأبواب.

خامسا وسادسا: إن في هذا الاستعمال لإشارة إلى نبأي العهد القديم المذكورين في الإصحاح ١٨، والفقرتين ١٨ و ٢٠من سفر التثنية، وقد ذكرهما في بحث التسمية قبل كل سورة بأن الرسول المعهود بهذين النبأين سوف يلقي على الناس كلام الله تعالى باسمه. فللفت النظر إلى هذين النبأين كان لا بد من زيادة الاسم.

الحمد لله رب العالمين (٢)

شرح الكلمات:

الحمد: هو الثناء والمدح والشكر جميعا، ولكنه أشمل معنى من الثناء والمدح والشكر، فهو يعني الاعتراف بالإحسان والشعور بالفضل، وتكرار المدح وإذاعته مع الدلالة على الرابطة بين العبد وربه. كما يعني المدح الصادق؛ ويعني المدح على العمل الاختياري دون مقابل. فالحمد أجدر بالله وأنسب، لأنه يدل على كل أنواع الثناء.

رب: هو المنشئ للشيء حالا بعد حال حتى تمامه، وهو المربي، والمالك والسيد والمطاع، والمصلح (الأقرب). وقيل: الخالق (البحر المحيط). ولا يطلق الرب مجردا عن الإضافة إلا على الله تعالى (المفردات).

العالمين: جمع عالم وهو كل نوع من أنواع المخلوقات عاقلة وغير عاقلة. وقد يستعمل للأخص كقوله تعالى: (.. أني فضلتكم عن العالمين)(البقرة: ٤٨)، أي أهل ذلك الزمن. ولكن الكلمة تعم جميع أنواع الكائنات. وقيل: العالم يطلق على المخلوق لأنه يساعدك على معرفة الله (الأقرب).

التفسير:

الحمد لله: ما قال هنا: أحمد أو نحمد، بل قال: الحمد لله، بهذا التركيب أبدع معاني عديدة منها:

أولا: استعمال المصدر أفاد الشمول أي جميع أنواع الحمد التي تصدر عن الإنسان أو يمكن أن تصدر عنه. فما من حمد إلا هو موجود في الله تعالى، وما من ذم إلا هو منزه عنه.

ثانيا: أن الله تعالى هو الذي يستطيع أن يحمد مخلوقه حمدا صحيحا لأنه عالم الغيب. الإنسان يحمد الإنسان، ولكنه قد يخطئ، أو يقصر، أو يغالي فيه، ويمدح بما ليس في الممدوح. فالحمد الحقيقي هو الذي يحمده الله، والإنسان لا يستطيع أن يتجنب الخطأ في الرأي حتى عن نفسه فضلا عما يرى في غيره، لكن الرأي الذي يبديه عالم الغيب عن عبده لا يكون فيه تقصير ولا مغالاة. أما استخدام الفعل (أحمد أو نحمد) فلا يؤدي إلى إبداع هذه المعاني الرائعة.

وثالثا: قد يحسب الإنسان أن باستطاعته الإحاطة بكنه صفات الله كلها، وهذا خطأ، لأن حمد الإنسان لله محدود، فهو يحمده على قدر ما أعطي من علم فقط، وليس بمقدوره معرفة الدواعي اللانهائية للحمد التي توجد في ذات الله. وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى فهم الحمد الكامل لله عز وجل.

واستعمال لفظ الجلالة (الله) أزال الالتباس من أن الإنسان أيضا يملك الثناء. فإن قيل: كيف أن الحمد كله لله فقط؟ فالجواب أن اللام في قوله (الحمد لله) تفيد أن الملكية الحقيقية للحمد هي لله وحده، والإنسان إنما يستمد الحمد مما

أنعم الله عليه من المحاسن. وهذه المواهب ليست لشخصيته، بل هي ثمرة رحمة الله الواسعة، فعندما يمدح الإنسان فإنما هو حمد لله تعالى حقيقة.

معاني الآية ومطالبها

ومن معاني هذه الآية ما يلي:

١. الله تعالى خالق هذا الكون، منزه عن جميع المعائب، وجامع لكافة الفضائل.

٢. هو عليم بحقائق الكون، وليس أحد سواه يدرك هذه الحقائق على وجهها الصحيح. والدليل القاطع على ذلك ما نرى للعلوم الطبيعية من ازدهار وتقدم، ولكن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من إدراك كامل لأدنى كائن من خلقه ﷻ، وما تزال الاكتشافات مستمرة والبحث جاريا في كل جزء من الكون.

٣. والله تعالى يحوز الحمد كله لكونه رب العالمين، فلا بد إذن أن يعم نظامه الروحاني العالم كله،كما هيأ الأسباب المادية للعالم كله، ويجب أن لا تحرم أمة من الأمم من وسائل الارتقاء الروحي. ولو كان الله قد أنزل لقوم وحيا خاصا للزم أن ينزل الوحي أيضا مختصا بالأقوام الأخرى. ولكن إن لم يكن ثمة وحي خاص فينبغي أن ينزل الوحي الشامل لإرشاد الأمم كلها. فالأديان التي تقول بتخصيص الروح، أو تدعي أن النجاة منوطة بأهلها فحسب.. أديان غير عادلة في اعتقادها هذا.

٤. مواهب الإنسان كلها من فضل الله عز وجل. ومهما اكتسب الإنسان من فضائل فالفضل كله يرجع إلى الله تعالى.

٥. اتصال الحمد بالربوبية يدل على أن الإنسان لا يستحق السرور الحقيقي إلا إذا كان مظهرا للربوبية. فالذي يفرح بمنفعته الشخصية ولا يلتفت إلى خسران الناس لا يعرف حقيقة الإسلام، لأن الراحة الحقيقية هي أن ترتاح الدنيا كلها.

٦. وبذكر الربوبية للعالمين أشار الله عز وجل إلى أن كل ما عداه ترقى ويتغير خاضعا لقانون التطور، وصرح أنه ليس هناك شيء استوت بدايته ونهايته، بل شيء سواه معرض للتغير والارتقاء من حالة إلى أخرى. وهذا المبدأ يؤدي إلى تأكيد أمرين: أولهما أن ما سوى الله مخلوق، لأن الذي يجري عليه التغير والتطور من المستحيل أن يكون وجوده بنفسه، وثانيهما أن مبدأ التطور والارتقاء متحقق، وكل من الإنسان والحيوان والجماد ينقلب من حالة إلى حالة أرقى، لأن معنى الرب أنه ﷻ يربي الأشياء بالتدريج حتى يوصلها إلى الكمال. فالارتقاء جار في جميع أنواع الكائنات.

٧. ويتضح أن الارتقاء يتم بمراحل مختلفة وأزمان عديدة، لأن الربوبية معناها إنشاء الشيء حالا بعد حال إلى حد التمام، وليس المعنى أن تتم الحلقة الواحدة فقط من سلسلته الممتدة.

٨. ثبت أيضا أن الارتقاء لا ينافي وجود الله عز وجل، لأنه يقول: (الحمد لله رب العالمين)، فهو يستحق الحمد بهذا النوع من التربية، ولذلك قرن (رب العالمين) مع (الحمد لله).

٩. هذه الآية تدل أيضا على أن الإنسان مخلوق لأجل تقدم لانهائي، لأنها تقول: الحمد لله الذي يربي الإنسان من درجة إلى أخرى أرقى منها، ولا تتأكد صحة هذا القول ما لم نسلم بوجود درجة فوق كل درجة.

١٠. وافتتاح سورة الفاتحة التي هي أول سورة في القرآن بقوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين) يشير كذلك أنه حان أن يحمد الله عز وجل حمدا كاملا، لأن الإسلام الذي هو أتم مظهر لصفة الربوبية العالمية قد ظهر لإرشاد الناس أجمعين، واتحد بظهوره العالم الروحي مثل اتحاد العالم المادي.

عندما كانت الرسل قبل الإسلام تأتي إلى أمة دون أمة، كان بعض الجهلاء يكذبون سائر الديانات الأخرى التي جاء بها الأنبياء. كان الهندوس يقولون: إنهم لا يعرفون "يهوه" إله اليهود، بل إن الإله الحق هو إلههم "برميشور"، وكان اليهود يستهزئون بإله الهندوس "برميشور". ولكن بظهور الإسلام توحد العالم في الدين، وأخذ الهنود والصينيون والمصريون والفرس والشعوب جميعا في حمد الله تعالى، وتحقق أنه ليس لكل قوم إله خاص، بل إن الجميع إله واحد.

الرحمن الرحيم (٣)

التفسير:

ولقد تساءل البعض عن سبب تكرار هاتين الصفتين هنا مع أنهما قد ذكرتا في البسملة. والجواب أن البسملة تحمل معنى مستقلا، وهي مفتاح لكل سورة أيضا، وإذا وردت ضمن موضوع السورة فلا بأس بها وليس هذا من التكرار في شيء. وقد أعيدت هاتان الصفتان للحكمة نفسها، فذكر (رب العالمين) أن الله عز وجل يربي شيئا فشيئا إلى درجة الكمال، وصرح هنا أن ربوبيته تظهر دوما بالرحمانية والرحيمية. فهو أولا رحمن.. أي خلق لكل شيء وسائل تساعده على الارتقاء، وبالأسباب اللطيفة جدا وضع في الإنسان وغيره من أنواع الحيوان والنبات والجماد قوى خفية، وهذه الأشياء كلها تتأثر مما حولها وتستمد لبقائها واكتمالها من العوامل المختلفة. وثانيا هو رحيم.. أي إذا قام أحد من خلقه بواجبه حق القيام قدر الله له هذا العمل حق قدره، وتفضل على صاحبه برحمته، وزوده بميل عظيم إلى الارتقاء، وهكذا يستمر هذا التسلسل إلى ما لا نهاية له ولا ينقطع أبدا.

والرحمن صفة لا تطلق على غير الله عز وجل إلا بالإضافة، كما فعل مسيلمة الكذاب إذا سمى نفسه "رحمن اليمامة". ومعنى الرحمن من يرحم بلا عوض، ويعطي بلا عمل. وهذا المفهوم يبطل عقيدة الكفارة التي يزعمها النصارى، لأنها تقوم على فكرة أن الله تعالى لا يرحم بلا عوض. وقد بلغت بهم شدة الشعور بهذا الاعتقاد أن نصارى العرب عندما يكتبون في كتاباتهم (بسم الله) يذكرون معه الصفات الأخرى، ولا يذكرون لتعصبهم صفة الرحمن ويكتبون مثلا: بسم الله الرحيم الكريم، لأن قلوبهم تشهد بأن الله عز وجل إذا كان الرحمن أيضا.. فلا يصعب عليه أن يغفر للناس ذنوبهم بلا كفارة المسيح.

ومن جانب آخر تلغي صفة الرحيم عقيدة تناسخ الأرواح الهندوسية المبنية على فكرة أن أعمال الإنسان في هذه الحياة محدودة، ومن ثم لا يمكن أن يترتب عليها خلاص أبدي. وصفة الرحيم الدالة على تكرار مظاهر صفة الرحمة، تبين أن الله تعالى عندما يجازي الإنسان على أعماله بسخاء. يخلق فيه الرغبة لتكرار أعماله الطيبة، ونتيجة لهذا التكرار، أو على الأقل لإظهار الرغبة فيه، يتكرر له الجزاء من الله.. وهكذا بلا نهاية.

وهذا الفهم الخاطئ لدى القائلين بالتناسخ راجع إلى اعتقادهم بأن الجنة مكان للجمود وعدم العمل. فالخلاص عندهم يعني ما يسمى بالهندية "النرفانا" أي توقف كل الرغبات والأعمال. وترفض صفة (رب العالمين) هذا المفهوم تماما، لأن الحياة الآخرة أيضا من خلق الله وعالم من العالمين، لا تنفك صفة الربوبية تعمل فيه، ويمضي الإنسان في ارتقاء روحي لا يتوقف بعد الموت، بل يستمر في عمل الصالحات، ويجزيه عليها الله الرحيم. والفرق بين العمل في الدنيا والعمل في الآخرة أن الأول قابل للارتقاء ومعرض أيضا للهبوط، والثاني يهدف دائما إلى السمو والارتقاء بلا

انحطاط أبدا. فالرقي الروحي هو غاية الأعمال في الآخرة ولا نهاية له ولذلك ليس لنا أن نفكر في تحديد العمـــــل في الدنيا وتقييد جزائه في الآخرة.

مالك يوم الدين (٤)

شرح الكلمات:

يوم: الوقت مطلقا كقوله تعالى: (وإن يوماعند ربك كألف سنة مما تعدون)(سورة الحج: ٤٨). تقول العرب: يومه يوم نعم ويوم بؤس. واليوم: الوقت الحاضر، تقول العرب: أفعل اليوم كذا.. ولا يريدون يوما بعينه ولكنهم يريدون الوقت الحاضر، الدهر (اللسان).

الدين: الجزاء؛ المكافأة؛ القضاء؛ الملك؛ السلطان؛ الحكم؛ التدبير؛ القهر؛ الغلبة؛ الورع؛ المعصية؛ السيرة؛ العادة؛ الشأن؛ اسم لجميع ما يتعبد به الله.. أي الشريعة؛ الملة؛ الطاعة؛ الحساب؛ الحال؛ العادة (الأقرب).

التفسير:

أولا: اعتمد المفسرون على كون الدين جزاء فقط، وأن الجزاء يختص بيوم القيامة. ومن هذه الوجهة تدل الآية على أن الله مالك يوم الجزاء، وليس لأحد أن يتدخل في ملكه. وبذلك ميز بين عاقبة الأعمال في الدنيا وبين جزائها في الآخرة. يستطيع الإنسان أن يجزئ غيره خيرا وشرا، غير أن حكم الإنسان قد يحمل الخطأ، ولكن الله تعالى سيتولى الجزاء والعقاب يوم القيامة، ومن المستحيل أن يعذب أحدا لما لم يفعل، ويرهقه ظلما بغير حق، كما من المحال لمجرم أن ينجو من العقاب بالكذب أو الخداع.

وتلفت هذه الآية نظرنا إلى أن الله لا يحكم يوم القيامة كملك فقط، بل يصدر حكمه كمالك. فحكم الملك يكون خاضعا لنواميس الحكومة وتقاليدها، ولا يمكن أن يتجاوز بحكمه العدل الرسمي في القضايا، لأنه يقضي في الحقوق ولا يستطيع أن يتصرف فيها. ولكن الله تعالى (مالك)، وليس ملكا فقط، ولذلك يمكن أن يعفو عن حقه على الناس كما يريد.

وكما يتيح لنا هذا التصريح القيم اغتنام الرجاء واجتناب اليأس، فكذلك ينبهنا إلى عدم التفكير في استغلال رحمة الله، لأن المالك كما وسعت رحمته كل شيء، كذلك فإنه لا يرضى أن يرى خلقه متمرغا في حمأة الإثم. فالله تعالى بمالكيته شجع الإنسان على التقدم والنشاط، وجعل مسلكه بين الخوف والرجاء. والنصرانية، على عكس ذلك، تدفع الإنسان إلى أعماق اليأس باصطناعها مقياسا خاطئا للعدل، كما تحرض على الإثم بالكفارة المطلقة. فبهذين المبدأين الهدامين لم تساعد النصرانية الإنسان على مجابهة الإثم، بل شجعته على ارتكابه. فزيادة اليأس بسبب العدل المزعوم أدته إلى زيادة المعصية، وإطلاق الرجاء في الكفارة دفعه أيضا إلى الانطلاق في الإثم.

ثانيا: ثم إن الآية تدل على أن الله تعالى مالك زمن الشريعة والدين. وهذا المعنى يرشدنا إلى بحث لطيف في نواميس القدرة. إن الله عز وجل ينفذ حكمه في الدنيا بالعموم طبقا لسنته العادية، لكنه عندما يقيم دينا أو ينزل شريعة فإنه يظهر بمظهر المالكية، ولا يكتفي بمظهر الملوكية التي تتعلق بسنته العامة، وإنما يتحلى بمظهر المالكية التي تدل على سنته الخاصة بعباده الصالحين. والذين لا يعرفون حقيقة صفات الله عز وجل يجدون هذا التصرف خرقا لسنته.. إذ يقوم بأمر الله إنسان يبدو ضعيفا مخذولا ويتحدى الدنيا بنبوته، ويقوم الناس ضده، ولكنه مع كونه ضعيفا عديم الوسائل ينجح، وكذلك يتحقق ما يطلب من الله بالدعاء، وتتم على يده أنواع المعجزات التي يتحدى بها الناس. والسر في ذلك أن الله تعالى عندما يريد أن ينفذ حكمه السماوي في الأرض يظهر بمظهر المالكية بدلا من الملوكية، كأنه يغير سنته العادية ويقرر قوانينه الخاصة لعباده المقربين، ويحدث الخوارق لإظهار صدقهم. وهذه هي سنة الله التي مضت في الأنبياء أجمعين.

وهذه الآية تخبر أيضا بأن صفة المالكية سوف تتجلى في زمن رسول الله ﷺ. وفي هذا دليل على أن عهده عهد شريعة، وأن الله سوف ينصره بالآيات المعجزات، وأنه لصادق مصدوق من الله العلي العزيز.

ثالثا: ومن معاني هذه الآية أن الله تعالى مالك زمن الخير والشر، والمراد أن الدنيا تواجه طورين: طورا ينتشر فيه الخير والشر على السواء، وحينئذ ينفذ الله سنته العادية في الأرض، وطورا يسود فيه الشر العالم كله، وعندئذ ينزل الله تعالى حكمه الخاص في الأرض، ويغير مجرى الأمور فيها، ويهتم بإصلاح جنته التي خلقها بغرس الإنسان، ويبعث نبيا، ويؤسس على يديه جماعة صالحة، قائمة على الخير، نابذة الشر، ويجعلها مثلا أعلى يحتذى به، وقدوة حسنة يقتدى بها. ولا ينفك ينصر هذه الجماعة بسنته الخاصة، وتطول بها هذه النصرة. فإذا انقلبت على عقبيها ورجعت القهقرى إلى ما كانت عليه من الشر، واستوت فيها حركتا الخير والشر فعندئذ يرفع الله تعالى سنته الخاصة عنهم، ويعاملهم بسنته العامة الجارية في الناس، حتى تبلغ هذه الجماعة أقصى مدى الشر، وعندئذ مرة أخرى يظهر الله لهم بحسب سنته المستمرة بمظهر المالكية، ويبعث نبيا يجتث الشر من الأرض، ويؤسس جماعة طاهرة، ويستمر ظهور نصرته الخاصة بصورة المالكية حتى تزل هذه الجماعة أيضا عن مستوى الخير، ويجري معها مثل ما جرى في الأولين.

رابعا: ومن معاني هذه الآية أنه مالك زمن الطاعة، بمعنى أن سنة الله الخاصة التي يجريها سبحانه وتعالى للجماعات يجريها أيضا للشخصيات التي تفنى في طاعته وتبذل حياتها في سبيل مرضاته. فلا يعاملهم الله مثل غيرهم، بل يسخر لهم القانون الإلهي الخاص.

خامسا: ومن معاني هذه الآية أنه مالك زمن الأحوال الهامة الحاسمة في تطورات الدنيا، والمراد أن كل عمل كحلقة من حلقات السلسلة، وليس له وجود منفرد، فمثلا عندما يمرض الإنسان فمرضه ليس بسبب خطأ طارئ في ذلك اليوم فقط، وليست صحته بسبب رياضته أو غذائه في يوم معين.. بل كل هذا نتيجة لحلقات من الأعمال المتكررة

الكثيرة، فإن لأعمال الإنسان نتيجتين: نتيجة بدائية ومؤقتة، ونتيجة نهائية دائمة، فمثلا هناك رجل طائش يسيء استعمال عينه فيصيبها الرمد فتصح بالمداواة، ثم يتهاون في أخذ الحيطة والحذر، فيعود الرمد إليها، وتصح بالعلاج مرة أخرى، وهكذا يرمد ويبرأ إلى أن تزول بصارته، ولا يجدي الدواء نفعا. والطالب الجاد يحفظ دروسه، ويسر به أساتذته، ويتكرر له رضى الأستاذ، وهو نتيجة فورية مؤقتة على عمله اليومي، لكن هناك نتيجة أخرى أوفى وأبقى من الأولى، فهو لا يتقدم في دروسه اليومية فقط، بل يكتسب ملكة تزيده ذكاء وخبرة في البحوث العلمية الدقيقة، وتجعله قبلة في العلوم. وهذه النتيجة الأخيرة تكون من الخفاء بمكان إذ لا يشعر بها حتى أصدقاؤه وزملاؤه.

وقد وجهنا الله تعالى بهذه الحقيقة إلى أن النجاح الأخير الدائم لا يتحقق إلا بالتقرب إليه تعالى. لا شك أن الإنسان يعمل وينجح طبقا لسنة الله المستمرة، ولكن النتيجة النهائية التي لا تتأتى إلا بعد اكتمال سلسلة من أعمال متواصلة، هي الجديرة بأن نقدرها ونهتم بها، وخاصة أن هذه النتيجة سوف تبدو جليا عند الموت، وتتأسس عليها الحياة الأخروية.

وليس المراد من (مالك يوم الدين) أنه تعالى ليس مالكا للدنيا، كلا، وإنما معناه أن المالكية المادية التي يحظى بها الناس في هذه الدنيا سوف تنقطع في ذلك اليوم انقطاعا تاما كما يقول الله تعالى: (..وما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله)(الانفطار: ١٩ و٢٠).

هذه الصفات الإلهية الأربع المذكورة في مستهل الفاتحة وما جاءت عليه من الترتيب.. ترشدنا إلى نكتة طيبة من أدب السلوك وهي أن الله تعالى له الدرجة العليا، والعبد له الدرجة السفلى بالنسبة إلى الله، ولأجل ذلك عندما يلتفت الله تعالى إلى العبد فإنه يتنازل إليه درجة فدرجة، لكن إذا أراد العبد أن يتقرب إلى الله تعالى فعليه أن يصعد إليه شيئا فشيئا حتى يتصل به.

وبعدما أدركنا هذه الحقيقة ندرك أن الله تعالى يتنزل على عبده شيئا فشيئا بهذا الصفات الأربع بحسب ترتيبها. فأولا: هو ينزل إليه بصفة رب العالمين، ويهيئ له محيطا يلائم النشوء والازدهار، ثم تأتي صفة الرحمن فتسخر له أسبابا تمهد له طريق الرقي الروحي، ثم عندما يستفيد العبد من هذه الأسباب ويحولها إلى نتائج عظيمة.. تعمل صفة الرحيمية عملها وينال العبد سلسلة من النعم، ثم يعطى الثمرة الأخيرة لكفاحه، أي الغلبة على العالم، وهذه الغلبة مظهر للمالكية التي ذكرتها في تفسير هذه الآية. والعبد، على العكس، عندما يحاول أن يتصاعد ويتقرب إلى الله، فأولا لا بد أن يكون مظهرا لصفة المالكية، بأن يقيم العدالة ويتجنب الظلم والاضطهاد، وأن تكون عدالته مرتبطة بالرحمة متصلة بالعفو غالبا. وهذه الدرجة هي ما يسمى باجتناب الشر. ثم عندما يرتقي درجة يصبح مظهرا للرحيمية، فيقدر أعمال الذين يتصلون به، ويزيد لهم مما أنعم الله عليه من فضله ويغمرهم بالخير، وهذا هو خلق الإحسان. ثم يرتقي درجة ويصير مظهرا للرحمانية، فيعم فضله وكرمه جميع الكون، ويشمل الأقارب والأباعد من

الناس بلا تفريق أو أثرة، ويسع قلبه حبا للمؤمن والكافر على السواء. ولا يحفل بأن يلقى الخير من الناس أم لم يلقه، وهذه الدرجة هي ما يسمى بإيتاء ذي القربى، وتشبه حالة الأم عندما تتفانى في خدمة طفلها، ولا تبالي بطاعته إياها، ولا تعتمد على الخير المرجو منه.. كذلك يكون العبد مظهرا للرحمانية، كالأم لبني الإنسان كافة. ثم يتقدم خطوة ويصير مظهرا لصفة رب العالمين، أي يتسع محيطه وينتقل مركزه من الفرد إلى المجتمع، ويشعر أنه مسئول عن جميع العالم وراع له. فعندئذ يلتفت إلى إصلاح العالم بصورة عامة، ويقلب المجتمع الفاسد رأسا على عقب.

وهذه الطرق المتصاعدة المتنازلة في طيات هذه الصفات الأربع تعليمات سامية لأهل السلوك، ورحمة منقطعة النظير للمتقين.

إياك نعبد وإياك نستعين (٥)

شرح الكلمات:

إياك: هذا أسلوب تخصيص معناه أخص الله تعالى بالعبادة والاستعانة.

نعبد:عبد الله: أطاعه؛ وخضع؛ وذل؛ وخدمه؛ والتزم شرائع دينه ووحده (الأقرب). وعبد: قبل النقش، ومنه الطريق المعبد أي الموطأ لأنه يقبل آثار الأقدام. ولا تكون العبادة إلا لموجود كامل منفرد في صفاته بلا شريك، وتكون طاعته ممكنة للإنسان.

التفسير:

يبدو من قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) وكأنه ﷻ مستتر عن العبد ولذلك يحمده بصيغة الغائب، ولكنه فجأة يناجيه بصيغة الحاضر ويقول: (إياك نعبد وإياك نستعين). وقد زعم بعض الجهلاء أن هذا الأسلوب يناقض الكلام البليغ؟ والحق أن هذا الأسلوب قمة البلاغة، لأن وجود الله تعالى غيب الغيوب، ولا يستطيع العبد أن ينظره بالعين المادية، وإنما يعرفه بصفاته، ويتقرب إليه بذكره، حتى يشعر به ويراه بقوته الروحية. ومن أسرار السلوك أن الإنسان عندما يفكر في هذه الصفات ويتعمق فيها تتبين له الحقيقة، ويندفع إلى الله اندفاعا لشدة الشوق، وتتشرف روحه برؤية الله، ويغمره حب الله حتى تستغيث فطرته وتقول: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين. فتغيير الضمائر يدل على أن الإنسان إذا لم يفكر في صفات الله يبقى غائبا عنه، لكنه عندما يطلب حقيقته في تلك الصفات يتجلى الله له وكأنه يراه عيانا، وعندئذ يلتجي إلى مخاطبته.

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل." (مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة).

ويستنبط من هذا الحديث الشريف عدة أمور:

أولا: أن الحمد والثناء والتمجيد يختلف بعضها عن بعض في المعنى.

ثانيا: أن الآية (مالك يوم الدين) تدل على التوكل البالغ، وتشير إلى أن العبد عندما يمجد الله كمالك يوم الدين، مع قوله (الحمد لله).. فكأنه يطمئن إلى ما يحكم به الله. وإذا تحلى العبد بهذا الإيمان والتوكل، أفلا يخصه الله بالمغفرة والرحمة؟

ثالثا: أن النعم التي لأجلها كانت هذه الأدعية لا بد أن ينالها المسلمون في وقت ما، لأن الحديث يبشر بأن لعبدي ما سأل، أي أنه سوف يعطى ما طلب.

وقد انتقد البعض تركيب الآية فقالوا: إن التوفيق للعبادة يكون من الله تعالى، فكان الأجدر تقديم الاستعانة على العبادة. والرد على ذلك بأن العبادة بلا شك تتم بإعانة الله وتوفيقه، ولكن تقديم العبادة هنا إشارة إلى أن الإنسان الذي يفكر في عبادة الله هو الذي يستعين به، والذي لا يهتم بعبادته كيف يطلب منه العون؟ فصدور فعل العبادة من الإنسان يكون نتيجة تفكيره في العبادة بسبب إيمانه، فإذا شرع في عبادة الله طلب منه المعونة، ولذلك قدمت العبادة على الاستعانة. ثم إن الإنسان عندما يقوم بعمل فإنما يعمله بإرادته واختياره، والنجاح والتوفيق لا يكون إلا باستعانة الله عز وجل، ولو كانت إرادة العمل أيضا بيد الله لكان الإنسان مجبرا في أعماله. فمفهوم الآية أن العبد عندما يقدم على العبادة فإنه يدعو الله ويسأله النصرة والتوفيق كي لا يعبد أحدا سواه.

والعبادة هي غاية التذلل والخضوع، والمقصود منها اتصاف الإنسان بصفات الله عز وجل. والحركات الظاهرية في العبادة إنما تستهدف إحداث تطورات للقلب، لأنه العبادة إنما هي عبارة عن كيفيات النفس وما يصدر عنها من أعمال. وأما تعيين الوقت والتوجه إلى القبلة والوقوف والركوع والسجود فأعمال لا تتعلق بالعبادة مباشرة، وإنما هي حركات تستهدف التفاعل بين الأوضاع الظاهرية والأحوال الباطنية للعبد، وهي تساعد في توحيد الاتجاه، فهي كإناء يوضع فيه لبن المعرفة أو كقشر للب العبادة.

وجاءت هذه الآية وما بعدها على صيغة الجمع: نعبد، نستعين، اهدنا.. وهذا يدل على أن الإسلام دين اجتماعي، يهدف إلى ارتقاء الجميع وليس الفرد وحده. ومن واجبات المسلم أن يكون راعيا لأخيه، فلا يكتفي بتوكله وعبادته وحده، بل عليه أن يلقن الآخرين التوكل والعبادة بسعي دؤوب حتى يكون الجميع من المتوكلين العابدين. وعليه أن لا يقتنع بالهداية لنفسه، بل يجب عليه أن يدعو غيره للاهتداء، ولا يبرح ناصحا لهم يبث فيهم روح الإيمان حتى يهتدوا، ويسلكوا المسلك الذي سلكه، ويستعملوا جميعا في دعائهم صيغة الجمع "نحن" مكان "أنا" بكل ما في الكلمة من معان. والواقع أن مثل هذه الروح التبليغية والتربوية هي التي نهضت بالإسلام أيما نهوض في سنين معدودة. وإذا أمكن اليوم ازدهار الإسلام فلن يمكن إلا بهذا الشعور السامي، وليس لأهل الإسلام كرامة في الدنيا ولا شرف في الآخرة إلا إذا تمسكوا بهذا المبدأ، قائلين بصورة جماعية: (إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم)، واستفرغوا جهدهم لقول هذه الكلمات عن صدق وعزيمة.. لا عن مجرد عادة متكررة.

والحق أن العبادة والاستهداء لا يكملان إلا بصورة اجتماعية، لأن الفرد الوحيد لا يستطيع أن يعبد الله إلا إلى أجل مسمى، ولا أن يؤسس هذه الفكرة إلا في محيط محدود. أما العابد الذي يجعل ولده وجاره أيضا يعبدان الله تعالى فإنه يوسع مجال العبادة ويمد أجلها. وأي شك في أن العبد الصادق الوفي لسيده هو من يحول دون الأعداء ودون مساسهم بأملاك سيده؟ وأما العبد الذي يشهد تخريب بستان سيده، ولا يسعى جهده لإنقاذه من أيدي الغاصبين فليس من العبودية في شيء.

ترد هذه الآية على ما يراه بعض الناس في الجبر والقدر. هناك طائفتان من أهل الآراء المتطرفة في حقيقة الأفعال الإنسانية، فالبعض يرى أنها تصدر عن جبر وإكراه، ويقول بهذا الرأي بعض رجال الدين والفلاسفة وعلماء النفس، وعلى رأسهم "فرويد" النمساوي.

ومن يأخذ بهذا الرأي على أساس العقيدة الدينية يقول: إن الله مالك، ومثله كمثل المهندس الذي يخصص بعض الأحجار للغرف وبعضها لدورة المياه، كذلك الله تعالى يخلق من يشاء للخير ويرغم من يشاء على الشر، وليس الإنسان مختارا. والنصارى أسسوا الإكراه على فكرة الإثم الموروث من آدم، ويرون أن الذي لا يتحرر من قيود الإثم بالإيمان بالكفارة يبقى مكرها عليه. والتناسخ عند الهندوس أيضا نتيجة لهذه الفكرة، لأن الخلقة التي تستحق الروح أن تحل بها تبقى معذبة بها جزاء لما ارتكبته في خلقتها الغابرة.

ولكن الدكتور "فرويد" تناول هذه المسألة على أنها بحث علمي، ويرى أن الإنسان يبدأ عهده التعليمي في الطفولة، قبل بداية ظهور الإرادة فيه عند البلوغ، فلا يمكن أن نقول إن الإنسان حر من ناحية الإرادة، لأن إرادته ليست إلا امتدادا للنزعات التي تتولد عنده في مرحلة الطفولة. الإنسان يظن أن أعماله وليدة إرادته وتفكيره الحر، لكنها ثمرة مشاعر الطفولة، ولا شيء غيرها. وإن الإنسان إنما يحسبها الإرادة الشخصية لأنها قد اتحدت بوجوده اتحادا.

وآراء "فرويد" ليست مبتدعة، بل نجد الإشارة لها في الإسلام كما يقول رسول الله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه."(صحيح البخاري، كتاب الجنائز). ومعنى الحديث أنهما يربيانه على عقائدهما، فيقبلها قبل البلوغ نتيجة لتلك التربية، ويقلدهما في مسلكهما بلا تفكير. وكذلك قد عقد الإسلام أهمية كبرى على عهد الطفولة عندما أمرنا الرسول ﷺ بالأذان في أذن المولود. ولكن رأي "فرويد" ليس صحيحا بالكامل.

ولقد رد القرآن على خطأ هذه المزاعم بقوله: (مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين)، لأن الجزاء والعقاب تبطل حكمتهما باستخدام الجبر والإكراه. فبقوله: (إياك نعبد) علمنا أن الإنسان، وإن كانت حريته بالإرادة محدودة شيء ما، لكنه بلا مراء يتمتع بنصيب من الحرية يستطيع به أن يقرر مصيره للاهتداء. مثلا: الإنسان، وإن كان متأثرا بعوامل سقيمة، إذا فكر في صفات الله وجد نفسه تهفو بالفعل لصوت (إياك نعبد)، ولا يستطيع أحد أن يرفض هذه الحقيقة. ثم ماذا عساه أن يجيب الدكتور "فرويد" وتلامذته إذ نرى أن الظروف تتطور، والآراء تتغير، والدنيا لم تعد

بحالة واحدة قط؟ فلو كانت قوة الشعور في الطفولة شديدة التأثير إلى حد يستحيل معه التحرر من قيودها، لوجب أن تبقى الدنيا من عهد آدم إلى يومنا هذا جامدة لا تتحول خطوة عن الطريق القديم، ولكننا نرى بعين التاريخ أنها تطورت ولا تزال في تطور دائم. وبذلك نتبين إمكان تطورات تحول مجرى التفكير الإنساني الذي اندفع إليه في الطفولة إلى اتجاه آخر. والقرآن يقوي جانبنا بأدلة محكمة نتناولها في مناسبتها.

وهناك فكرة أخرى تعاكس الجبر تماما، وهي أن الإنسان حر مطلقا في تكوين اتجاهاته، والله تعالى لا يتدخل في أعماله أدنى تدخل. إن الإسلام يرفض هذه الوجهة من الحرية المطلقة أيضا، ويقول: إنكم لا تستطيعون أن تتحرروا تماما من عوامل البيئات التي تحيط بكم، فلا بد أن يكون عليكم رقيب يسمو وجوده عن تأثير هذه العوامل، ويحفظكم من خطورتها عند اشتدادها. ودعاء (إياك نستعين) يوجه الأنظار إلى أن خالقكم سبحانه وتعالى لا يزال على مرأى ومسمع من تقصيركم وعجزكم. فادعوه يستجب لكم، واقرعوا بابه يفتح لكم.

اهدنا الصراط المستقيم (٦)

شرح الكلمات:

اهدنا: يقال: هداه إلى الطريق: بينه له. وهدى العروس إلى بعلها: زفها إليه. وهدى فلانا: تقدمه،مثل:جاءت الخيل يهديها فرس أشقر.. أي يتقدمها (الأقرب). فللهدى ثلاثة معان: الدلالة على الطريق؛ القيادة في الطريق؛ المصاحبة إلى نهاية الطريق. وفي القرآن أطلقت هذه الكلمة على عدة معان منها: خلق القوى وتسخيرها للعمل كما في قوله تعالى: (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)(سورة طه: ٥١)؛ ومنها الدعوة للاهتداء كما في قول الله تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا)(سورة السجدة: ٢٥)؛ ومنها القيادة الكاملة كما قال تعالى: (الحمد لله الذي هدانا لهذا)(سورة الأعراف: ٤٤)؛ ومنها الترغيب والتحبيب كما قال عز وجل: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه)(سورة التغابن: ١٢)؛ ومنها النجاح كما جاء في قوله تعالى: (وإن تطيعوه تهتدوا)(سورة النور: ٥٥).

والقرآن لا يضيق الهدى، بل يبين أن له مدارج كثيرة متصاعدة، وأن الذين يستحقون بعملهم فضل الله ورحمته ينالون هذه الدرجات: (والذين اهتدوا زادهم هدى)(سورة محمد: ١٨).

المستقيم: من الاستقامة، والاستقامة يقال في الطريق الذي يكون على خط مستو، وبه شبه طريق المحق نحو: اهدنا الصراط المستقيم (المفردات).

التفسير:

في هذه الآية (اهدنا الصراط المستقيم) يعلمنا الله دعاء لم يسبق له مثيل في كماله وسموه. فهو دعاء لا يختص بأمر خاص، بل يعم جميع ضرورات الحياة صغيرة وكبيرة؛ دينية ودنيوية. فلكل عمل، مهما كان، طريق يوصل إليه، وإذا اخترنا ذلك الطريق أدى بنا إلى النجاح. ثم أحيانا نجد طرقا شتى إلى عمل واحد، وهذه الطرق.. بعضها مشروعة وبعضها غير مشروعة، ومن المشروعة ما يكون أسرع وأقرب للنجاح، ومنها ما يكون غير ذلك. وتعلمنا هذه الآية أن ندعو دائما بهذا الدعاء.. كي يهدينا الله إلى الطريق المستقيم.. أي الأسرع إلى الفوز. فما أيسر هذا الدعاء وما أكمله وما أشمله! لا هدف من أهداف الحياة إلا ويمكننا أن نستعمل له هذا الدعاء العظيم. والذي يعتاد هذا الدعاء لن يدخر جهدا في استثمار جهوده، لأن الذي يذكر مرة بعد أخرى أن لكل عمل طرقا مشروعة وغير مشروعة، وأنه يجب عليه البحث عن المشروع منها، وأن عليه اختيار الأقرب منها.. ولا بد أن يستسيغ هذا التعليم السامي. ومن البين أن الذي يدعو الله تعالى لأجل الطريق المستقيم يتأثر فكره بهذا الدعاء. وتتجه جهوده كلها نحو البحث

عن هذا الطريق. وأي شك في سمو المقاصد وسداد الأعمال وتتابع الجهود لدى من يهتم في أعماله بالمبادئ التالية المبنية على هذا الدعاء:

١. أن تكون جميع أعماله مشروعة.

٢. أن لا يقنع بدرجة واحدة، بل يبقى مشوقا للدرجات العلى التي لا نهاية لها.

٣. أن لا يضيع وقته سدى، بل ينتهز كل لحظة، وينهي كل أشغاله في أقل وقت ممكن.

إني على ثقة من أن المسلمين لو داوموا على هذا الدعاء في إخلاص وصدق نية، مع فهم معانيه.. لكان له تأثير ملموس في نفوسهم، فضلا عما يعود عليهم من فوائد جمة لكونه دعاء صائبا.

قال بعضهم: إن الله أمر المسلمين بهذا الدعاء (اهدنا الصراط المستقيم) في كل صلاة، بل كان الرسول ﷺ يدعو بهذا الدعاء دائما.. أفلا يدل ذلك على أنه لم يجد أيضا ذلك الصراط المستقيم ولأجل ذلك كان دائب الدعاء من أجل الحصول عليه؟ وهذا تساؤل غريب يدعو إلى الضحك من عقول هؤلاء المتعلمين من النصارى والهندوس الذين يوجهون مثل هذا الاعتراض بلا تأن أو ترو، ويتعجبون ويقولون: ماذا عسى أن يكون عند المسلمين من الرد عليه؟ وإليكم الجواب:

أولا: الهداية، كما ذكرنا، ليست الدلالة فقط، بل هي الدلالة والقيادة والإبلاغ إلى النهاية. فطلب الهدى إذن يختلف باختلاف الطالبين في الدرجات، مثلا: من لا يعرف حقيقة الهداية يطلب إدراك حقيقتها أو موضعها ومكانها من الأديان. ومن يعرف الهداية ولكن يجد في سبيل القبول موانع من ضعف الإرادة أو الأصحاب الذين يعرقلون طريقه، أو البعد عن الهادي الكامل الذي يصعب الاتصال به، أو لم تتيسر له صحبة صالحة، فهذا الشخص عندما يطلب الهداية فإنه يعني: قدني إلى الهداية، وأزل عن طريقي جميع العقبات التي تواجهني. وإذا كان الداعي ممن تيسر له الانقياد في هذا الطريق، وزالت المشاكل عن طريقه، فمعنى طلب الهداية بالنسبة إليه: اللهم إن طرق الهدى واسعة جدا، ومسالك المعرفة لا تنتهي، فأطلب إليك أن تساعدني على مواصلة التقدم في هذا الطريق، وأن لا تتأخر قدمي عن السبق فيها، وأن أقف على مزيد من أسرار الحق، وأن توفقني للعمل أكثر من ذي قبل.

فمن من الناس يمكنه أن يستغني في أي وقت عن معنى من هذه المعاني الثلاثة للدعاء؟ إن رسولنا ﷺ كان أكمل الأولين والآخرين، لكن إله الإسلام ذو قوى لا نهائية، ومهما تقدم الإنسان إلى قربه لا يمكن له أن يحيط بها، بل يبقى له مجال أوسع من أن يحد، وهو دائم الاحتياج إلى الدعاء باهدنا الصراط المستقيم، والاستزادة من علمه تبارك وتعالى في أمور الدين والدنيا كليهما.

والحق أن هذا الدعاء لا يثير أي شبهة، بل إنه يقدم نظرية إسلاميةشاملة فيما يتعلق بالتقدم العلمي، وهي نظرية فيها دليل قاطع على أفضلية القرآن. نزل هذا الكتاب القيم في جو حافل بالأديان، فنسخها كلها، وأسس مكانها دينا

أقوم وأكمل، لكنه لم يقل ما قالت به الملل أخرى من أن العلم قد انتهى بوجودها، وانسدت أبوابه بمجيئها، بل بين أن العلم لم ينته بظهوره، وإنما باب العلوم مفتوح على مصراعيه. ومن أجل هذا الغرض علم أتباعه أن لا ينقطعوا عن طلب المزيد من العلم، وعليهم أن يقولوا في كل صلاة (اهدنا الصراط المستقيم)، وأن يكرروا هذا الدعاء في الصلوات أكثر من ثلاثين مرة في اليوم والليلة. وبهذا المبدأ السامي وسع الإسلام للإنسان الطريق العلمي أيما توسيع.

وقد توهم البعض أن هذا الرأي يناقض كون القرآن آخر كتاب سماوي للعالم، لأن العلم إذا كان دائم الارتقاء والازدهار فلماذا لا نسلم إذن في أن القرآن سيأتي دوره لينسخ في وقت من الأوقات، ويحل محله كتاب آخر؟ ويمكن الرد على هذا الزعم بما يلي:

لو سلمنا جدلا بنزول كتاب من بعد القرآن ينسخه، فها قد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرنا ولم ينزل هذا الكتاب الأكمل المزعوم. ولقد أجهد الفلاسفة وأتباع الملل الباطلة أن يأتوا بمثله فخابوا وخسروا في جميع محاولاتهم. فإذا لم يكن ثمة كتاب كهذا فكيف نقيم لهذا الزعم وزنا.

ثم إن القرآن عالم روحي، ولا يختلف في أحواله عن العالم المادي، فكما يتقدم الإنسان كل يوم في مجال العلوم المادية، ومع ذلك لا يخلق له كل يوم عالم جديد حتى يكتشف فيه أسرارا كامنة، بل يبذل تفكيره في العالم القديم نفسه، ويستخرج منه أسرارا خافية وعلوما حديثة.. كذلك القرآن العالم الروحي، لا يحتاج الإنسان بعده إلى عالم روحي جديد حتى يفكر فيه. وما حظر القرآن على الناس التقدم في العلوم. وكما أن الناس يكتشفون أمورا جديدة بمطالعة العالم المادي، كذلك القرآن يقدم للإنسان المتدبر فيه علوما روحية واسعة غير منتهية نظرا لمدى إمكانه وغاية استطاعته، والذين يفكرون فيه تنفتح عليهم معارف القرآن حسب إخلاصهم وبقدر عزيمتهم في طلبهم: (اهدنا الصراط المستقيم). فمع كون القرآن الكتاب الأخير لم يتوقف الارتقاء العلمي، بل قد ازداد سرعة وسعة كما يصرح القرآن نفسه: (الذين اهتدوا زادهم هدى)(سورة محمد: ١٨).

فالهدى الذي وصف به القرآن لا يطلق على رقي محدود، بل هو سلسلة غير منقطعة من الحقائق، ولا تلبث الحلقة الواحدة منها حتى تبدو الأخرى. ولقد جربت شخصيا أنه ما من مسألة دينية إلا ويقدم القرآن لنا علما متوفرا لحلها. وعلى الرغم من وجود هذه الحقيقة الناصعة لم يرد العالم أن يصغي إلى رسالة القرآن، بل يبحث عن دين آخر يطمئن إليه. ومثله إذن كمثل الذي يجد المعين العذب يتدفق أمامه.. ثم يتيه ويمضي بحثا عن غيره.

ثم أني أتعجب للمسلمين الذين يدعون كل يوم (اهدنا الصراط المستقيم)، ثم يظنون أنه لا يجوز لهم أن يجتازوا ما كتبه المفسرون، وأنه ليس هناك علم في القرآن غير ما ذكروه، وأنه لم يبق لدى الله تعالى شيء بعده. إن كان زعمهم هذا حقا فلماذا إذن يدعون (اهدنا الصراط المستقيم). فيجدر بهم أن لا يضيعوا وقتهم في هذا الدعاء، ويقتنوا تفاسير السلف ويكتفوا بما فيها.

إن هذا الدعاء دعاء جامع بصورة رائعة، ويمكن للإنسان أن ينتفع منه في كل أمر من أمور الدين والدنيا. ولا يجد الباحث عن الحق مناصا من التوجه إليه مهما كان دينه، فهو دعاء لا يختص بدين دون آخر، بل يحتوي على طلب الصراط المستقيم، أي طريق الحق الخالص الذي يمكن لكل إنسان أن يدعو من أجله من غير أن يمس باعتقاده. ولا يسع أحدا.. نصرانيا كان أو زرادشتيا، بوذيا كان أو ملحدا، أن يعيب هذا الدعاء. إن الملحد لا يؤمن بالله، لكنه يستطيع أن يقول: إذا كان الله موجودا فليدلني على الصراط المستقيم. فهذا الدعاء لا ضرر فيه، ويتسم بالحياد، إذ لا يختص بدين دون دين. إنه جامع لكل أنواع الطرق، شامل لجميع العالم، بل يعم كل حالة من الأحوال، ويشمل كل فرد من أفراد الأسرة العالمية. وقد ثبت من خلال تجاربي أنه ما من أحد غير مسلم نصحته بهذا الدعاء فدعا به، إلا وأظهر الله عليه صدق الإسلام. لهذا فإنني على يقين أن كل من يبتهل إلى الله بهذا الدعاء بكل إخلاص وصدق سوف يكشف الله عليه الحقيقة، إذ لا يمكن أبدا أن يستغيث المخلوق على باب الخالق طالبا الهداية فيرده خائبا خاسرا.

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٧)

شرح الكلمات:

أنعمت: من الإنعام وهو الفضل والزيادة (الأقرب).

المغضوب عليهم: الغضب هو ثوران دم القلب وإرادة الانتقام، وإذا وصف الله تعالى به فالمراد الانتقام دون غيره (المفردات).

الضالين: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية. ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أوكثيرا (المفردات).

التفسير:

عندما أرشدنا الله تعالى إلى طلب الصراط المستقيم، علمنا أيضا أن يكون هذا الصراط صراط من أنعم عليهم، وأن لا يكون طريقا عاديا، بل يكون مسلكا للأرواح السامية المرتقية. ما أعظم هذا الهدف الذي جعله الله وجهة لكل مسلم في أول سورة من سور القرآن. فلا يليق بالمسلم أن يقنع بفعل الخير، بل عليه أن يمضي فيه قدما حتى يصير من الذين نالوا حظا عظيما من نعم الله تعالى. والحق أن الذي يتذوق حب الله لا يستطيع أن يكتفي بدرجة ضئيلة، لأن حب الله تعالى يفسح قلب الإنسان، فلا يطمئن إلى ارتقاء محدود، وبعدما يلتاع قلبه حبا للخالق عز وجل.. فأنى لشيء آخر أن يحتل قلبه ويطمئنه؟ الذي يريد وجه الله إنما يطلب الترقيات بأسرها، ومن عرف ربه لا يعترف بنهاية التقدم. وأعظم من ذلك مسرة عند المؤمن.. أنه مع شعوره بهذا الطموح في سبيل مرضاة الله عز وجل.. يجد من الله تعالى التعليم والتشجيع بأن لا يرضى بسافل الدرجات، بل عليه أن يطلب ما حصل عليه أولو النعم من عباده الذين حازوا قصب السبق إلى الخيرات، وعليه أن لا ينتظر ما نال أحد من هؤلاء المقربين من النعمة، بل يحق له أن يسأل جميع ما تمتعوا به من أفضال.

والإنعام في اللغة لا يحدد بمعنى خاص، بل يطلق على كل خير يعطى إعرابا عن الرضا، دنيويا كان هذا الإنعام أو دينيا. وقد وردت هذه الكلمة بمعنى عام في قوله تعالى: (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه)(الإسراء: ٨٤). فالإنعام يشمل العلم والفن والكرامة الدنيوية وغيرها من المفاخر، لأن هذه النعم لا توهب إلا من عند الله، ولكن كثيرا من الناس بدلا من الشكر عليها ينسون المنعم وينصرفون عنه.

كما أن القرآن يعد الإنقاذ من المصائب نعمة من النعم كما يقول عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(المائدة: ١٢). فكل إحسان نعمة ولا شك، لكن هناك أنواعا من الإحسان هي أحق بأن تكون نعما، وهي أسماها وأعلاها مكانة كما يقول الله: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) (المائدة: ٢١).

لقد ذكر الله في هذه الآية الأشياء الجديرة بكونها نعما، والتي أنعم الله بها على بني إسرائيل. وفي أسلوب وجيز بليغ أشار القرآن هنا إلى النعمة الدنيوية والنعمة الدينية ونعمة التفوق العام المترتبة على النعمتين السابقتين.

وقد توسعت معاني الآية توسعا عظيما بذكر (صراط الذين أنعمت عليهم) بعد (اهدنا الصراط المستقيم). فهذه الكلمات لم تجعل هدف المسلم مجرد طلب الصراط المستقيم في مقاصده التي حددها لنفسه، بل وجهته إلى أهداف أخرى سامية. فعليه أن يطلب من الله الاهتداء إلى الطرق المستقيمة، والدخول في الطائفة المنعم عليها، وفوق ذلك يدعوه أن يهديه إلى طرق العرفان، والتعاليم السامية التي وقف عليها عباده الذين أنعم عليهم.

ولقد من الله على أهل الإسلام إذ شجعهم بهذه الآمال الواسعة النطاق، الحافلة بنتائج عظيمة. وإنا وإن كنا لسنا بحاجة إلى مزيد من الاستدلال على أن أبواب التقدم مفتوحة على مصراعيها لأهل الإسلام، إلا أن اليأس قد عم المسلمين بهذا الصدد، لذلك نتوجه إلى القرآن المجيد مرة ثانية، ونبحث عن المعاني التي أرادها الله بتعليم هذا الدعاء، وأيضا لنتبين هل وعد الله تعالى بإجابة هذا الدعاء أم لا؟

قال عز من قائل: (..ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا* وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما * ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)(النساء: ٦٧ إلى ٧٠).

لقد ذكرت هذه الآية النعم التي قدرها الله تعالى للمسلمين، وقد تكررت فيها نفس الكلمات التي وردت في الفاتحة أي (الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم). وهنا فسر القرآن الطائفة المنعم عليها وحددها بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقال إن المسلمين سوف ينالون هذه النعم.. أي ينالون هذه الدرجات العلى في الروحانية.

قد يقال: إن (مع) تعني هنا المصاحبة لا المشاركة، أي أن المطيعين لله والرسول يكونون مع هؤلاء ولن يكونوا منهم. لكن ضعف هذا القول واضح في نفس الآية، لأن (مع) لو كانت متصلة بالنبيين فقط.. لكان المراد من الآية أن بعض هذه الأمة سيتشرف بمرافقة الأنبياء.. من غير أن يكون منهم..لامتناع النبوة المطلقة في هذه الأمة. لكن الله تعالى وضع (مع) قبل (الذين أنعم الله عليهم). وإذا كان معنى (مع) هو المصاحبة دون المشاركة في تلك الدرجات العلى..

لكان معنى ذلك أن المسلمين لن ينالوا شيئا مما أنعم الله به على الأولين. نعم، إنهم سيعطون مصاحبة ذوي تلك الدرجات الأربع، ولكن من غير أن يشاركوهم فيها. وتؤول الآية إذن إلى أن ليس في المسلمين من يستحق نعمة من هذه النعم، وإن كان بعضهم سوف يرافقون المنعم عليهم من الأمم الأخرى. وهذا المعنى لا يقبله القرآن والحديث ولا العقل السليم.

فكلمة (مع) تتعلق بالطوائف الأربع من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فإن كانت (مع) بمعنى المعية والمصاحبة فقط.. لكان معنى الآية أن المسلمين لا يمكن لهم مطلقا أن ينالوا النبوة غير أنهم يصاحبون الأنبياء الآخرين، ولا يستطيعون أن يكونوا من الصديقين غير أنهم يرافقون الصديقين، ومن المستحيل أن يكونوا شهداء غير أنهم يكونون في صحبة الشهداء الآخرين، ويمتنع عليهم أن يكونوا صالحين غير أنهم يصاحبون الصلحاء الآخرين. وليس شيء أذل ولا أشد إساءة لمقام النبي المصطفى ﷺ وأمته من هذا التأويل الركيك القائل بخلو أمته حتى من الصالحين فضلا عن النبيين.

وقد قال البعض بأن النبوة هبة من عند الله فلا يجوز الدعاء لأجل الحصول عليها؟ والجواب أن المسلم لا يدعو لأجل النبوة، بل الأمة المسلمة تدعو أن تكون ممن أنعم الله عليهم، وهذا هو معنى الآية. ثم إذا شاء الله أن يخلع على أحد منهم نعمة النبوة فلا راد لفضله (الله أعلم حيث يجعل رسالته)(الأنعام: ١٢٥). والنبوة هبة من الله بلا مراء، لكن لماذا اختص الله بها محمدا ﷺ، ولم يهبها لأبي جهل مثلا؟ لابد أن تكون في نبينا مؤهلات لهذه النعمة من تضحية وإيثار في سبيل الله تعالى.

ثم متى قلنا إن الآية تعلم المؤمن أن يسأل نعمة النبوة لنفسه، لأن هذا النوع من الأدعية.. التي يصر فيها الإنسان على أمر خاص لنفسه.. مردودة ومكروهة في الأمور الدنيوية فضلا عن أمور الدين، ومثل صاحب هذه الأدعية كمثل الحداد الذي يدعو الله أن يجعله عميدا لكلية الطب، أو الأعرج الذي يدعو أن يكون بطلا للعالم في العدو. فهذه الأدعية عقيمة باطلة، لأن الدعوات إنما تجاب حسب الظروف الروحية والمصالح السماوية. فلا يجدر بالمؤمن أن يدعو ويلح على طلب شيء خاص من المراتب الروحية، ولو أنه دعا أن يصبح صديقا أو شهيدا أو قطبا كان دعاؤه مكروها عند الله، فما بالك بالإصرار على النبوة؟! لأجل ذلك تعلمنا الآية الدعاء بصيغة الجمع فنقول: (اهدنا) وليس (اهدني)، لأن صيغة الجمع تحفز على المصالح الاجتماعية القومية. ولذا يصطفي الله من القوم من يراه جديرا لدرجة روحية.

ثم لا يغزبن عن البال أيضا أن هذا الدعاء يراد به الحصول على الإنعام، والنبوة أيضا إنعام وهبة، فأي حرج لو اعتبرنا أن هذا الدعاء دعاء بقيام النبوة في القوم؟ والقرآن يؤكد لنا أن جميع النعم، وعلى رأسها النبوة، سوف توهب للمسلمين، فلا يحق لأحد أن يحرمها عليهم.

وأما قولهم: كيف يمكن أن يبعث نبي ورسول الله ﷺ خاتم النبيين، فجوابه موجود في قوله: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)، أي لا يستحق هذه النعمة إلا من أطاع الله ورسوله ﷺ. ومن البين أن المطيع بهذه الصفة لا يمكن أن يتعدى عمل ه عمل رسول الله ﷺ، ولا أن يأتي بشرع جديد غير شرعه ﷺ. فالنبي التابع لشريعة رسول الله ﷺ لا يكون مخالفا ولا معارضا (لخاتم النبيين)، بل يكون مكملا لمعناه.

ولقد كتب أحد المفسرين العصريين في تفسير له يقدمه للناس مرارا وتكرارا، أن هذا الدعاء (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم..) لو كان المراد منه الحصول على النبوة لعلم الله نبيه ﷺ هذا الدعاء قبل بعثه نبيا، ولكن وجوده في القرآن يدل على أن تعليمه كان بعد النبوة، وهذا ينفي كونه دعاء للنبوة.

وهذا القول غاية الحمق ودلالة على ضعف التفكير، لأن دعاء (اهدنا الصراط المستقيم) دعاء فطري، أما التلفظ بهذا الدعاء بكلمات القرآن فلأنها مباركة ومنزهة عن الخطأ، وإلا فكل محقق، مؤمنا بدين كان أو كافرا، عندما يشعر بحاجة إلى البحث عن الحق يدعو بكلمات تشابه هذه الكلمات معنى، ويقول اهدنا الطريق المستقيم طريق أحبابك. وهل يمكن لمن كانت له مسحة من العقل أن يظن أن رسول الله ﷺ ما كان يتمنى قبل بعثته أن يهتدي إلى الصراط المستقيم ويسلك طريق المحبوبين لدى الله؟ إن مجرد التفكير في هذا الأمر يؤدي بالإنسان إلى الكفر؟ والحق أن اضطراب قلب محمد ﷺ هو الذي تسبب في جذب الفضل الإلهي، وقد عبر عن هذا الاضطراب بقول: (اهدنا الصراط المستقيم). ولفظ القرآن في هذا الدعاء يمتاز بعمومه وكماله وترفعه ونزاهته عن كل عيب. كما أنه يثير شعور الاضطراب فيمن مات فيه هذا الشعور، ويبعث الناس على الأمل بأنهم إذا دعوا بهذه الصورة فدعواتهم أقرب إلى القبول، بل قد أمرهم الله بهذا الدعاء. فالزعم بأن رسول الله ﷺ كان خلوا من لوعة الاضطراب ومن دعاء كهذا قبل بعثته نبيا.. إهانة له ﷺ، بل هو استخفاف بكرامة الله عز وجل، لأنه فرض النبوة فرضا على رسول الله عن غير جدارة ومن غير اشتياق عنده للاهتداء. نعوذ بالله من هذه الخرافات!

ثم إذا كان هذا الزعم صحيحا.. فلسائل أن يسأل: هل كان محمد ﷺ صالحا محبا لله مقربا إليه قبل النبوة أم غير صالح؟ وإذا كان صالحا فليس بي حاجة أن أصلي وأصوم كما يأمر القرآن، وأن أجاهد كما يفرض علي، وليس ثمة داع إلى القيام بشرائع القرآن إذ حصل رسول الله ﷺ على التقوى وعلى هذه الصلة المفضلة بلا أي عمل كهذا، فلماذا إذا أبقي محتاجا إلى الدين وأحكامه؟ بل دعونا من الأمور الدينية وفكروا في الأشياء الدنيوية، مثلا، إذا قال قائل: لقد وجدت الدجاجة أو البيضة في هذا الكون أول مرة دون عمل بشري، فلماذا نحن بحاجة إلى إيجادها طبقا للقوانين الطبيعية؟

طبعا لا أحد يوافق على هذا القول، ويصبح قائله عرضة للتفنيد والرمي بالبلاهة، لأن سنة الله عند انعـــدام البـــذرة تختلف عن سنته بعد وجودها في الأرض، وكذلك قبل بعثة النبي ﷺ كانت التعاليم السماوية قد انمحت، فاضطربت فطرته الطاهرة بشعور الحب الإلهي، فشرف الله تعالى هذه العواطف الفطرية بالقبول وقدرها أحسن تقديـــر. لكـــن بعدما نـــزل القرآن وسن لكل أمر شرعة ومنهاجا.. لا يمكن الحصول على النعم التي تمتع بها الأولون إلا بشـــريعة القرآن التي نـــزلت على محمد ﷺ، ولن ينجح من بعدها من يخرج على هذه الشريعة ويندد بأحكامها.

وهناك وجهة أخرى للرد على هذا الزعم: هل درجة النبوة هذه مجرد منصب من المناصب ولا حاجـــة إلى العمـــل للحصول عليها، أم هي منصب ديني عظيم ذو أهمية كبرى، ويتطلب أن يكون النبي متصفا بالتقوى والنـــزاهة قبـــل أن يصبح نبيا؟ وإذا كانت التقوى والنـــزاهة ضرورية للنبي فسؤالنا: هل يمكن في رأيهم أن يكون غير النـــبي أتقـــى وأقرب إلى الله من النبي؟ فإن أجاب المفسر العصري المذكور وأمثاله.. بأنه يمكن أن يكون غير النبي أتقى من النـــبي.. فإذا تبقى المشكلة اللفظية فقط. أما إذا كان جوابهم أن غير النبي لا يمكن أبدا أن يكون أتقى من النبي فإن من يزعـــم أنه لا نبوة في الأمة المحمدية، لا غير تشريعية ولا تابعة لدعوة الرسول محمد ﷺ فكأنه يقرر أن لا أحد من هذه الأمـــة بقادر أن يبلغ المكانة الروحية التي بلغها الناس من الأمم الغابرة. وهذا القول يؤكد بحرمان الأمة المحمدية من النعـــــم السماوية، والعياذ بالله!

وتساءل المفسر المذكور فقال: ما هي العلة التي أدت إلى رفض أدعية الأمة بأسرها خلال ألف وأربع مائة سنة في هذا الشأن؟ والجواب أن إجابة الدعاء تتوقف على كيفية وكمية الدعاء ونوعه، والسائل يسلم بإمكان نيل الأمة مرتبـــة الصديقية، فنسأله من مسلماته: كم صديقا في هذه الأمة؟ فإذا قال: لم يوجد في هذه المدة إلا صديق واحد هو أبـــو بكر – رضي الله عنه – فنسأله: لماذا لم يستجب الله لأحد آخر طوال هذه القرون؟ وإذا قال: كان هناك صديق مـــع أبي بكر في الأمة، فنسأل: هل كان أفضل من عمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم – أم لا؟ فإذا لم يكن أفضـــل منهم فإذن كيف أمكن أن يصير صديقا وهؤلاء الأصحاب الثلاثة لم يتجاوزوا مقام الشهادة وهو لم يرق إلى مقامهم في الشهداء بعد؟

وإجمال القول إن ما يرد على بقاء النبوة من الاعتراض يرد أيضا على بقاء الصديقية، وهو قول ناشئ عن قلة تدبـــر ولا يقوم على الحقيقة.

وهنا أحب أن أضيف حكمة أخرى وهي أن الرسول ﷺ سمى سورة الفاتحة أم القرآن وأم الكتاب (ســـنن أبي داود، كتاب الصلاة). وعندي أن هذه التسمية قد أخذت من هذه الآية والتي قبلها. إن المرحلة الأخيرة للعبادة أن يســـأل العبد الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم. وإذا كان هذا الدعاء ممكن الإجابة واطمأنت إليه قلـــوب القـــوم واضطربت به إلى الله، وتضرعت بأنهم مندفعون نحو الهلاك، وأنهم يستحقون أن يفتح لهم طريق الهدى، وإذا وافقـــت

استغاثتهم استغاثة الشخصية الكاملة الطاهرة التي بعثها الله لتلك الفترة، وجعلها بطل الأبطال في ساحة الدين، فعند اجتماع الاستغاثتين تنبثق رحمة الله عز وجل وينزل فضله وحيا وهدى. وهكذا كانت سنة الله من قبل وهكذا ستبقى إلى الأبد. إن صريخ المظلومين في زمن نوح وافق تضرعات القلب الطاهر الصافي لنوح عليه السلام، واستنزل الكلام الذي نزل على نوح، وإن صياح الأرواح الطيعة في عهد إبراهيم عليه السلام اجتمع مع اضطراب القلب المطهر لإبراهيم.. فاستدر نزول صحف إبراهيم، وتكرر ذلك في زمن موسى وعيسى عليهما السلام، وكذلك حدث قبل بعثة النبي المصطفى ﷺ. تخبرنا الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان ينقطع للعبادة في غار حراء، ويبقى فيه داعيا متضرعا أياما متوالية. هكذا كان حال القلب الأطهر الذي يشعر بحقيقة ما يفكر فيه، وكانت هناك تأوهات خفية من أهل الدنيا تطلب الهداية والصراط المستقيم. اتفقت كل تلك التضرعات واستثارت فضل الله تعالى، حتى نزل القرآن. والحق أن (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) تنم عن الظروف التي سادت العالم قبل نزول الكلام الإلهي، خاصة تلك الظروف التي تأثرت بها القلوب الطاهرة السليمة. لقد أنتجت هذه الظروف تضرعا وتخشعا في القلوب، وأدت إلى حماس واندفاع فكري، وأسفرت كل هذه الأوضاع عن نزول الهداية لذلك الزمن. فالحديث المذكور آنفا إشارة إلى أن هذا الدعاء هو السبب لنزول القرآن، ولذلك سمى رسول الله ﷺ سورة الفاتحة "أم القرآن وأم الكتاب" لأن العلة لوجود شيء تنزل منزلة الأم له.

ومما يجدر بالذكر أن قول رسول الله ﷺ إن الفاتحة هي "القرآن العظيم"، لا يعني أن سائر القرآن أصغر منها شأنا، فهذا بين البطلان.. وإنما سبب هذه التسمية أنه كان من الممكن أن يشتبه الأمر على المسلمين بسبب اسمين آخرين للفاتحة، "أم القرآن" و"أم الكتاب"، فيظنوا أن الفاتحة ليست من القرآن.. ولذلك وصفها بأنها "القرآن العظيم" أيضا ليتبين للجميع أنها جزء من القرآن الكريم. فالعرب تطلق اسم الكل على الجزء فيقال مثلا.. إن فلانا يقرأ القرآن، فلا يعني ذلك كل القرآن وإنما جزء منه.

جدير بالذكر أيضا أن رسول الله ﷺ قد سمى الفاتحة "أم القرآن وأم الكتاب والقرآن العظيم. فكأنه ﷺ قد اعتبر الفاتحة من جهة الأم .. أي سببا أدى إلى نزول القرآن، ومن جهة أخرى اعتبرها في نفس الوقت الوليد أي القرآن نفسه، فاجتمع الأصل والفرع في شئ واحد. هذا لأن الحالة الأولى في العالم الروحاني تولد الحالة الثانية، فكأن الحالة الأولى هي الأم والحالة الثانية هي الوليد، مع أنهما وجود واحد. كذلك الفاتحة هي الأم لأن الدعاء المذكور فيها هو الذي أدى لنزول القرآن، وهي القرآن العظيم كذلك لأنها جزء منه.

والإنسان أيضا خاضع لهذا القانون الروحاني الذي يعبر عنه بكلمات تشبيهية كما يقول عز وجل: (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون.. ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات

ربها وكتبه وكانت من القانتين)(التحريم: ١٢، ١٣).. أي أن هؤلاء المؤمنين يتصفون بصفات مريم ثم يتقدمون حتى يتلقون كلام الله ويصيرون مسيحيي النفوس.

والخلاصة أن تسمية هذه السورة بأم القرآن وأم الكتاب والقرآن العظيم تفسر الاصطلاحات الإسلامية تفسيرا لطيفا، وتبين للمرتابين حقيقة تسمية رجل من الأمة باسم مريم وعيسى – وهو المهدي والمسيح المنتظر عليه السلام – لأنه إذا أمكن أن تكون السورة حسب قول رسول الله ﷺ أم القرآن والقرآن نفسه، فليس من الصعب أن يعرف المؤمن الصادق الإيمان حقيقة مريمية رجل وعيسويته، لأن حالته وهو يتضرع لظهور المسيح كانت حالة مريمية، ومن أجل ذلك سمي هو "مريم" أم عيسى مثلما سميت الفاتحة أم القرآن لأنها تطلب الهدى بدعاء (اهدنا الصراط المستقيم)، وكذلك عندما سمع دعاء هذا الرجل وأجيب إلحاحه أعطي روحا عيسوية وسمي عيسى. وبذا أصبح مثل دعاء (اهدنا الصراط المستقيم) الذي استنزل القرآن وكان أما، ثم صار جزءا منه وكان قرآنا عظيما.

وهناك درس يجب أن نتلقنه كما تلقنه الصحابة من هذه الآية (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم).. وهو أن لكل قوم غاية يسعون إليها ويستنفذون جهودهم لأجلها، وكذلك جعل الله لهذا الكون هدفا وغاية، والأمة التي تحقق غاية الكون أحرى أن تكون غاية لهذه الدنيا. جاء آدم عليه السلام وعلم الناس مبادئ وتعاليم تلائم ذلك الزمن. وتقدم الناس تقدما ملحوظا على ضوء هذه التعاليم، وسبقت عقولهم عقول البدائيين إلى مدى بعيد. لكن الإنسان مع ذلك ما بلغ إلى الكمال الذي قدر له أن يبلغه، لذلك استمر طموحه إلى التقدم حتى بعث نوح وبلغ بهم في العلو مرحلة أخرى، ومع أن الإنسان تقدم في عهد نوح في كل ناحية من النواحي الروحية والأخلاقية والعقلية إلا أنه ما حصل المقصد الذي خلق من أجله، فتبع نوحا نبي آخر ثم آخر، وتتابعت هذه السلسلة حتى ظهر الوجود الكامل في شخصية محمد ﷺ، وظهرت بوجوده جميع الأسرار التي كانت مستورة مكنونة، وبين ﷺ كل ما يتصل بالتقدم الروحي والنضوج العقلي والسمو الأخلاقي، فكأنه بلغ بالدين من الناحية العلمية إلى ذروته، ولذلك أعلن الله تعالى بلسانه: (اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي) (المائدة: ٤).

لكن الغاية المقصودة من هذه التعاليم الكاملة لن تتحقق ما لم يعمل بها الإنسان ويتمسك بها تمسكا وثيقا. ثم لكي تكون رسالة النبي ﷺ ناجحة حق النجاح، علم الله المسلمين أن يدعوا: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم).. أي أن هدفكم هو المقام المحمود الذي لأجله بدأت الدنيا سفرها، وتقدم إليه الأنبياء بأممهم، وقلد رسول الله ﷺ المرحلة الأخيرة منه. فالمراد من دعاء (صراط الذين أنعمت عليهم).. هو اللهم أعطنا حسنات أمة آدم، ثم أبلغ عقليتنا إلى مبلغ أمة نوح، ثم ارفعنا إلى مستوى أمة إبراهيم، ثم هب لنا فضائل قوم موسى، ثم اجعل حظنا من نفح عيسى، وتقدم بنا يا ربنا من مرحلة إلى أخرى، واسم بنا إلى المثل الأعلى لمحمد ﷺ.. كي تنجح رسالته وتتحقق غايته، ويحل مركزه العظيم من المقام المحمود الذي وعدته.

فالمراد من (صراط الذين أنعمت عليهم) هو المرحلة الأخيرة من عبقرية الإنسان التي تسابقت إليها القافلة الإنسانية التي قادها الأنبياء في فترات عديدة ومراحل مختلفة، وفوضت المرحلة الأخيرة منها إلى رسول الله ﷺ، وكأن أمة المصطفى ﷺ يطلبون بهذا الدعاء: اللهم أكملت الدين وأتممت النعمة على رسولك ﷺ، فالآن نطلب إليك التوفيق والاستطاعة لأن نطبق هذا الدين بأعمالنا وتظهر فينا القوى الجبارة الخفية التي نمت على يد الأنبياء، والتي هي المقصد الحقيقي لهذا الكون، اللهم لأجل هذا الهدف العظيم فانصرنا، ووفقنا لأن نخطو بطريقة شاملة مراحل المعرفة التي قطعتها كل أمة خطوة خطوة، كي تتحقق الغاية المتوخاة من خلق الإنسان على يد الأمة المحمدية.

إن الصحابة رضي الله عنهم تمسكوا بهذا المقصود، وجمعوا في شخصياتهم أخلاق الأمم كلها، وقدموا للعالم المثل العليا الخالدة. واليوم لو اتخذت جماعتنا هذا الهدف نصب عينها لأوشكت أن تحل الساعة المباركة التي يتشرف فيها رسول الله ﷺ بمقامه المحمود، وتهدأ فيها الدنيا من اضطرابها المقيم المقعد.

أما قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).. فكل من يثير غضب الله بمعصية فهو من المغضوب عليهم، وكذلك من ضلوا في حب غير الله ونسوه عز وجل، فهم من الضالين. وقد جدد رسول الله ﷺ معنى هاتين الآيتين فيما روي عن عدي بن حاتم قال النبي ﷺ: "إن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى" (مسند أحم ابن حنبل مجلد ٤ مسند الكوفيين). وقد نقل الترمذي هذا الحديث بالرواية نفسها وقال عنه: حسن غريب. ونقل ابن مردويه عن أبي ذر الغفاري، قال: سألت رسول الله ﷺعن المغضوب عليهم، قال: اليهود. قلت: الضالين؟ قال: النصارى. وقد ثبت هذا المعنى عن كثير من الصحابة مثل ابن عباس وابن مسعود حتى قال ابن أبي حاتم: "ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافا"(تفسير ابن كثير).

ويمكن أن نستدل على هذا المعنى بالقرآن أيضا، فقد ورد فيه عن اليهود: (فباءوا بغضب على غضب)(سورة البقرة: ٩١). وجاء فيه عن النصارى: (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا)(سورة الكهف: ١٠٥). وقال عنهم بعد أن ذكر منهم من يؤله المسيح وأمه: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)(سورة المائدة: ٧٨). أخبر الله هنا أن عامة النصارى ما كانوا مشركين، بل كان بعضهم مؤمنين وبعضهم مشركين، والمشركون منهم كانوا ضالين ومضلين أيضا بسبب دعوتهم سائر النصارى الذين قبلوا الدعوة، واستبدلوا الشرك بالتوحيد. ومجمل القول: إن القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة تدل على أن المراد بالمغضوب عليهم والضالين هم اليهود والنصارى.

والعبارة بدل من "الذين" أو من ضمير الغائب في (أنعمت عليهم) ومعناها: اللهم اهدنا الصراط، صراط المنعم عليهم، وليس صراط الذين أنعمت عليهم ثم تولوا على أعقابهم وأصبحوا من المغضوب عليهم، ولا صراط من يغالي في حب سواك فيضل.

وقد توفرت في ذلك دواعي العبرة والإنذار للمؤمن. فليتذكر أن عليه أن لا يطمئن ما لم يبلغ إلى مأمن من الضلال. وليواصل جهوده كي لا تزل قدم بعد ثبوتها لأقل غفلة، فتنهار به إلى الهلاك.

وفي هذه الآية نبأ عظيم يمكن أن يحفز الرجل العاقل للتزود بالإيمان. فعند نزول هذه السورة لم يكن اليهود ولا النصارى في اعتبار رسول الله ﷺ، بل كان كفار مكة هم الذين يقفون ضده يومئذ، وكان عدد اليهود والنصارى في مكة ضئيلا جدا، وما كان لهم سلطان في حكومة مشركي مكة. ولما جاء الدعاء (اهدنا الصراط المستقيم) لم يرد بصيغة (غير المشركين)، بل ورد (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، أي اليهود والنصارى.. فكيف كان ذلك؟

الجواب أن الله تعالى أومأ بذلك إلى أن ملة المشركين ستنمحي إلى غير رجعة، فلا حاجة لكم إذن إلى طلب تجنب طريق المشركين. لكن اليهود والنصارى سيبقون.. فدعت الحاجة إلى أن يدعو المسلمون ليتجنبوا عن طريقهم. فنبه الله تعالى المسلمين وأمرهم أن يفكروا في كل احتمال، لأن فتنة اليهود يمكن أن تفاجئهم من غير مأتاها. ثم من الممكن أن يصبح المسلمون أنفسهم مثل اليهود، وذلك بإنكار المسيح الموعود والإمام المهدي كما أنكر اليهود المسيح ابن مريم. وهذه الحالة تحدث عند استفحال فتنة المسيحية الضالة. فكأنهم سيحرمون من نصر الله لتشبههم باليهود، ثم تهاجمهم المسيحية الضالة فتنزع منهم ألوفا من أبنائهم. أليست هذه الآية نبأ عظيما؟ أليس باستطاعة المسلمين أن يستفيدوا منها وينجوا من هاتين الفتنتين؟

عند إمعان النظر نتبين حكمة لطيفة أودعها الله هذه السورة. فالصفات الإلهية وصيغ الدعاء وقعت متقابلة متناسبة تماما:

فصفة (الحمد لله) يقابلها من الدعاء (إياك نعبد)، وهذا إشارة إلى أن الإنسان عندما يشعر بأن الله متصف بجميع أنواع الحمد.. تدفعه الفطرة لأن يقول (إياك نعبد).

وصفة (رب العالمين) يقابلها من الدعاء (إياك نستعين)، وذلك لأن الإنسان عندما يجد أن الله هو خالق كل ذرة من السماوات والأرض وهو رب محسن.. يلتجئ إليه ويقول: (إياك نستعين).

وصفة (الرحمن) يقابلها من الدعاء (اهدنا الصراط المستقيم)، لأن الإنسان عندما يشعر أنه أعطى جميع حاجاته بلا مقابل.. فإنه يصيح قائلا: اللهم إن أهم حاجة لي هي أن أتصل بك وأتقرب إليك، فاهدني إلى الصراط المستقيم.

وصفة (الرحيم) يقابلها من الدعاء (صراط الذين أنعمت عليهم)، والرحيم صفة الذات التي تقدر عمل الإنسان حق قدره. فكأن العبد يطلب إلى الله تعالى أن تكون أعماله مؤدية إلى النعم التي أنعم الله بها على عباده المصطفين، فالرحيمية تقضي ألا يضيع عمل عامل.

ثم (مالك يوم الدين) يقابلها من الدعاء (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، لأن العبد عندما يوقن أن الله سوف يحاسبه حسابا عادلا، يشعر بالخوف من الخسران المقبل، ويدعو أن يكون من غير المغضوب عليهم ولا الضالين.. ليكون بمنجاة من غضب الله.

وإذا تدبرنا في آيات هذه السورة المباركة، وأمعنا النظر في ترتيبها، وجدنا جليا أنها تتضمن تعليمات ارتقائية تدريجية لمراحل القرب. إن عبادة المعبود تكون إما لحبه أو لخوفه.. والله تعالى وجه الإنسان في هذه الصورة إلى كلتا الناحيتين من صفاته. فالذين طبعوا على الشكر لنعم الله يعبدونه لأجل هذا الحب وهذا الإحسان، ومن الناس من لا يبالون بالنعم، ولكن الخوف من العقاب يحملهم على الطاعة والعبادة. فينبغي للحكيم أن يرغب أولا بالنعم، وإذا لم ينفع ذلك فعليه بالترهيب بالغضب. والله تعالى.. وهو أحكم الحكماء.. قد اختار هذا الأسلوب في هذه السورة، فذكر أولا الصفات التي تغمر القلب حبا له عز وجل.. فذكر اسمه.. (الله).. ومعناه الجامع لجميع المحامد، المنزه عن كل المعائب، الخالق الرازق لكل شيء، تعم ربوبيته المؤمن والكافر، وهو الذي هيأ لحياتنا مقدمات ووسائل دقيقة لا نستطيع أن ندرك حقيقتها، وإذا عملنا عملا جزانا به الجزاء الأوفى. فالذين اعتادوا على الطاعة والخضوع للسماحة والكرم، عندما يفكرون في هذه الصفات يتطلعون له عز وجل بقولهم: (إياك نعبد). لكن الذين لم يجربوا تأثير الحب والإحسان ولا يتأثرون إلا بالتخويف والتهديد، فهؤلاء عندما يفكرون في صفة (مالك يوم الدين) ويرون يوم الحساب ماثلا أمامهم، يوم يحاسبون على النعم حسابا عسيرا، عندئذ يخضعون له ﷻ خوفا من الحساب، ولا يلبثون إلا أن يقولوا (إياك نعبد).

وبعد ذلك عندما يشعر بالضعف والعجز في نفسه، وعندما يدرس هذه الآيات ويفكر في عظمة الله وجبروته، يتضرع في طلبه ويقول (إياك نستعين).. أي إني أطيعك وأعبدك، لكنني لا أستطيع أداء ما علي من حق العبادة.. من أجل ذلك فإني أستعين بك على هذا العمل، فوفقني أن أقوم بواجب الطاعة حق القيام.

فإذا كان الحب قد بلغ بالإنسان هذا المدى من شدة الشعور بعظمة الله وسلطانه، عندئذ لا يلبث أن يقول: (اهدنا الصراط المستقيم). وهذا يدل على كمال الحب، لأن العبد يقول: اللهم لقد عرفتك بهذه الصفات الجميلة، فالآن لا أستطيع البقاء بعيدا عنك، فاهدني إلى أقصر طريق مستقيم وسط خال من الإفراط والتفريط.

ثم يقول: (صراط الذين أنعمت عليهم)، لأن المشرفين بالقرب تتفاوت درجاتهم حسب أعمالهم، فبعضهم من الطائفة العامة، وبعضهم من الطائفة الخاصة، ولذلك يقول العبد: (صراط الذين أنعمت عليهم).. أي اجعلني من الطائفة الخاصة المنعم عليها. لا أحب أن أتخلف في العامة من عبادك، بل أريد أن أصبح محبا ومحبوبا لك. وكما أنني أشتاق إليك كذلك أحب أن أراك مشتاقا لي؛ لأن المنعم عليهم هم الطائفة المحبوبة.

وهكذا يبلغ العبد إلى درجة الاتصال التام. وهناك تنكشف حجب المغايرة بين العبد وربه، ويتحقق له القرب الكامل بوصال المحب إلى المحبوب، ويتمنى العبد أن يدوم هذا الاتصال ولا ينقطع أبدا. من أجل ذلك علمه الله تعالى أن يدعو لبقاء هذه العلاقة الطاهرة، وأن يسأل فضل الله وتوفيقه لتعزيز هذه الصلة المقدسة.

والانقطاع الذي يخل بهذه الرابطة يحدث بوجهين: إما أن يغضب المحبوب ويطرد المحب من حضرته، أو يضل المحب عن الطريق المستقيم ويبتعد عن المحبوب. لأجل ذلك علم الله العبد أن يقول: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، أي لا أريد أن أخطئ فتطردني من جنانك، أو أن أضل بالمغالاة في حب غيرك بعد إذ هديتني إلى الصراط المستقيم.

هذا هو الدعاء الكامل الجامع الذي علمه الله الناس رحمة بهم وفضلا عليهم. إنه دعاء لا يمكن لدين من الأديان أن يأتي بمثله. ألم تروا كيف حللت الفطرة الإنسانية تحليلا دقيقا، وكيف عولجت جميع النظريات المتطرفة المتنوعة في هذه السورة القصيرة. ألا فليعقل العاقلون أن لا نجاة اليوم إلا بالإسلام، ولا شفاء من الأمراض الروحية إلا بالقرآن.

آمين: أي اللهم استجب لنا. ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان عندما ينتهي من قراءة الفاتحة يقول: آمين. وهذا هو العمل المطرد الثابت عن الصحابة اقتداء بالنبي ﷺ.